الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالمي و البحث العلمي
جامعة مُحَّد بوضياف بالمسيلة
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم الفلسفة

عنوان البحث :

جدلية أخلاق الرأسمالية
عند ماكس فيبر

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إعداد الطالبة:
فتيحة دحماني

إشراف الدكتور:
الدراجي زروخي

السنة الجامعية : (2015 / 2016)

بسم الله الرحمان الرحيم

((إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب

الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك

يوم مشهود)) هود الآية :103

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى أستاذي المتميّز المشرف على هذا العمل الدكتور زروخي الدّراجي تقديرا وعرفانا . والدّعاء له بالصّحة و طول العمر.

إلى والدتي الكريمة حفظها الله وأطال بعمرها.

الى روح والدي الطاهرة .

الى إخواني وأخواتي حفظهم الله .

إلى صديقتي وعزيزتي وأختي التي لم تلدها أمّي سيفي فيروز التي كانت أعزّ صديقة لي وكانت السند الوحيد لي في حياتي وفي مساري الدراسي بمختلف أطواره.

كما أهديها الى محبّي العلم والمعرفة .

فتيحة

شكر و تقدير

نحمد الله عزّ وجل ونشكره عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، الذي منّ علينا ووفّقنا في اتمام هذا البحث ، وبعد الشكر والحمد لله الذي وفّقني حتّى استقام هذا البحث أرى أنّه من واجبي ومن باب العرفان بالجميل أن أسدي الحق لأهله ، وأوّل من يستحقّ هذا الحق هو أستاذي الفاضل المتميّز المشرف على هذا العمل الدكتور زروخي الدّراجي الذي زرع فينا بذور الفلسفة وحبّ التفلسف حين جسّد وترجم نبله الأخلاقي الى نبل أكاديمي فتواضع لي من خلال قبوله الاشراف على هذه المذكّرة رغم كثرة أعماله ومن خلال حرصه أشدّ الحرص على متابعتها وتصحيحها من الأخطاء .

فله منّي أزكى وأسمى عبارات الشكر والامتنان ولا أظنّ أنّني وفّيته حقّه بهذه العبارات البسيطة وسأظلّ مدينة له مدى العمر .

كما أتوجه بشكري الجزيل الى كل أساتذة قسم الفلسفة عرفانا له بما قدموه لنا من مساعدات.

فتيحة

فهرس الموضوعات

مقدمة.....ص أ
الفصل الأول /المنطلقات الفكرية لنظرية ماكس فيبر ص1
المبحث الاول / السياج الفكري لنظرية ماكس فيبر .....ص 1
اولا/ ماكس فيبر وماركس .....ص 1
ثانيا/ دوركايم وماكس فيبر.....ص4
المبحث الثاني/ النظرية الاجتماعية لماكس فيبر .....ص 10
اولا/ علم الاجتماع ومعنى الفعل الاجتماعي ص10
ثانيا/ النموذج المثالي ص13
ثالثا/ البيروقراطية .....ص 16
المبحث الثالث/ فكرة العقلنة عند ماكس فيبر ص16
اولا/ مفهوم العقلنة ص19
ثانيا/ عقلنة المعتقدات الدينية ص12
الفصل الثاني / قراءة ماكس فيبر لبعض الطوائف الدينية .....ص 25
المبحث الاول / البروتستانتية كمذهب ديني أخلاقي ص25
اولا/ التعريف بالبروتستانتية.....ص25
ثانيا/ التأسيس وابرز الشخصيات ص25
ثالثا/ بعض المبادئ الاخلاقية للديانة البروتستانتية .....ص 29
المبحث الثاني / قراءة ماكس فيبر للإسلام واليهودية ص33
اولا/ موقفه من الاسلام .....ص 33
ثانيا/ موقف ماكس فيبر من اليهوديه.....ص36
الفصل الثالث/ التأسيس الاخلاقي للرأسمالية عند فيبر ص39
المبحث الاول / مفهوم الرأسمالية..... ص40
اولا/ تعريف الرأسمالية..... ص 40
ثانيا/ اسس و اشكال الرأسمالية.....ص41
المبحث الثاني/ اخلاق العمل عند ماكس فيبر.....ص43
اولا مفهوم اخلاق العمل .....ص 43
ثانيا/ اخلاق العمل في البروتستانتية.....ص44

المبحث الثالث/ روح الرأسمالية والمبادئ الاخلاقية عند ماكس فيبر ص52
اولا/ مفهوم روح الرأسمالية ص53
ثانيا/ التمييز بين الرأسمالية و روح الرأسمالية .....ص 59
خاتمة .....ص 65
قائمة المصادر و المراجع .....ص 69
فهرس الموضوعات.....ص73

مقدّمة

من المتعارف عليه أنّ عصر النّهضة بعد خروجه من سيطرة الكنيسة شهد تطوّرا مذهلا في كل الميادين وعرف أزمة أخلاقية وروحية حادّة ، وهذه الأزمة ناتجة عن التّعارض الكبير بين ما تمليه الحضارة الغربية والتي تعرف بأنّها الحضارة المهيمنة والمسيطرة على الانسان في جميع المجالات ، وبين ما يمليه الدّين من قيم و سلوكات أخلاقية ترفضها هذه الحضارة والتّي تدّعي أنّ هذه القيم الدينية ينبغي التّخلّي عنها لأنّها سبب التخلّف وعدم التقدّم الى الأمام لكي يتمكّن من الانخراط والاندماج فيما تقدّمه هذه الحضارة من تطوّر وازدهار مذهل في جميع الميادين.

والأكيد أنّ الحضارة الغربية بجميع مقوّماتها المادية والروحية هي من بيئة أوربية مسيحية الدّيانة كما أنّ افرازات هذه الحضارة سواء الايجابية منها أو السلبية كانت تصدر عن مرجعية دينية سواء كان ذلك بالتّأكيد كما ساد في العصور الوسطى ، أم بالرفض والقطع بين المرجعية الدينية والتطوّر الذي حصّلته الحضارة الغربية مع الدّيانة المسيحية كما ساد بعد عصر النهضة وعصر الأنوار.

ولقد أدّت التطوّرات والافرازات التي حقّقتها الحضارة الغربية الى حدّ الافراط وبالتّالي أنتجت ضررا وخيما مسّ الانسان بالدرجة الأولى ، وهذا ما جعل التّساؤل حول أهمّية الدّين وإن صحّ القول الدّين المسيحي وضروريته وبالتّحديد مصداقيته في عصر الأنوار تساؤلا ضروريا وحتميا ، وهو التساؤل عن ضرورة عودة القيم الخلقية النابعة من المرجعية الدّينية لتكون الرافد أو الموجّه الحقيقي لكل المشاريع التي حقّقتها الحضارة الغربية سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ،و شهدت الحضارة الغربية في العصر الوسيط نوعا من الجمود الفكري ، حيث كانت الكنيسة تبسط سيطرتها ونفوذها على جميع المجالات وكانت بمثابة الموجّه الحقيقي للمشاريع التي حقّقتها الحضارة الغربية حيث كان العقل تحت سلطة الكنيسة ، ولكن في عصر النهضة والذي شهد التطوّر والتّقدم الهائل بعد تحرير العقل من هذه السلطة جمّد ووقّف حركة الدّين ولم يعد هذا الأخير بمثابة المرجعية الأساسية في تحديد و ظبط كل المشاريع التي تحقّقها الحضارة الغربية.

لكن هذا التّقدّم الهائل للحضارة الغربية أحدث قطيعة بين كل ما هو مادي وما هو روحي ومن خلال هذا الانفصال بين المجال الروحي والمجال المادي ظهرت تيارات فكرية تحاول معالجة ما آل اليه الدّين كظاهرة سوسيولوجية إن صح القول ذات توظيفات شتى على أصعدة الايديولوجيات السياسية والاقتصادية على وجه الخصوص.

وربّما تمثّل الرأسمالية كنظام اقتصادي مبني على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتّبادل وعلى حرية السوق أهمّ الأنظمة التي ساهمت في تطوير الحضارة الغربية والتي ساعدتها على الوصول الى أعلى مراتب التطوّر والتقدّم

الحضاري. وفي هذا الصدد ولد الجدل الفلسفي حول مسألة " أخلاقيات الرأسمالية " ، فمصطلح الرأسمالية لا يشير فقط الى أسواق تبادل السلع والخدمات وانّما يشير أيضا إلى نظام من الابتكار وتكوين الثروة والتغيّر الاجتماعي وبالتّالي فإنّ هناك من يعتقد بأنّ الرأسمالية نظام ثقافي وليس نظام اقتصادي فحسب ويستحيل تفسيرها من خلال العوامل المادية فقط وبهذا تكون الرأسمالية نظام يظمّ مجموعة من القيم الثقافية والروحية والأخلاقية ومن هنا فإنّه بإمكاننا دراسة النظام الرأسمالي من وجهة نظر أخلاقية.

ومن خلال هذا التعريف العام للرأسمالية سعى العالم الاجتماعي الألماني ماكس فيبر الى العودة الى أهمّية الدّين وبالتّحديد السلوك المعبّر للمتديّن وبالتالي فهم تأثير السلوك الديني في بقيّة النشاطات الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن هنا ربط ماكس فيبر بين البروتستانتية كدين يضمّ مجموعة من القيم التي توجّه سلوك الفرد في مختلف النشاطات وبين الرأسمالية كونها نظام اقتصادي يحتكم أيضا الى مجموعة من القيم الثقافية والروحية والأخلاقية وليس باعتبارها نظاما اقتصاديا وفقط. وللوقوف على حقيقة هذه الأمر جاء بحثي هذا متناولا للإشكالية التالية :

هل التصوّر الذي قدّمه ماكس فيبر في الأخلاق من خلال الربط بين البروتستانتية والرأسمالية يعتبر مذهب انساني يتجاوز المذاهب الأخلاقية المعروفة ؟ وبالتّالي هل كان ماكس فيبر يبحث عن الحقيقة أم أنّه يريد أن يكون مجدّدا للبروتستانتية ؟

وللإجابة عن هذه الاشكالية تبنيت الخطة التالية :

الفصل الأول /المنطلقات الفكرية لنظرية ماكس فيبر:

ويضم المباحث التالية:

المبحث الاول / السياج الفكري لنظرية ماكس فيبر

المبحث الثاني/ النظرية الاجتماعية لماكس فيبر

المبحث الثالث/ فكرة العقلنة عند ماكس فيبر

الفصل الثاني / قراءة ماكس فيبر لبعض الطوائف الدينية:

ويحتوي على المباحث التالية:

المبحث الاول / البروتستانتية كمذهب ديني أخلاقي

المبحث الثاني / قراءة ماكس فيبر للإسلام واليهودية

الفصل الثالث/ التأسيس الاخلاقي للرأسمالية عند فيبر :

ويضم المباحث التالية :

المبحث الاول / مفهوم الرأسمالية

المبحث الثاني/ اخلاق العمل عند ماكس فيبر

المبحث الثالث/ روح الرأسمالية والمبادئ الاخلاقية عند ماكس فيبر

واتبعت لتجسيد هذه الخطة تارة المنهج التحليلي وتارة أخرى و المنهج المقارن حسب الضرورة ، ووجدت مجموعة من الدراسات تقترب من بحثي هذا منها دراسة اسيا عمروش وهي رسالة ماجستير بعنوان طبيعة العلاقة بين الأخلاق والسياسة عند ماكس فيبر، فأردت أن أوسع مجال الدراسة وذلك بمحاولة الربط بين فلسفة ماكس فيبر وتجلياتها في مجال فلسفة الاخلاق من خلال الربط بين الجانب الاخلاقي الديني والنظام الاقتصادي الرأسمالي وواجهتني عدة صعوبات في حل الاشكال منها الصبغة التي تناول بها ماكس فيبر جدلية الربط بين الرأسمالية والبروتستانتية، فهي دراسة تجمع بين الطابع اللاهوتي و الفلسفي على حد سواء ، لكن رغم هذا حاولت بالرجوع الى مجموعة من المصادر والمراجع أن اتجاوز هذه الصعوبات حتى أصل الى حل الاشكال المطروح وأرجو أن يكون بحثي هذا في المستوى المطلوب.

الفصل الأول: المنطلقات الفكرية لنظرية ماكس فيبر الأخلاقية

تميز القرن التاسع عشر بأنه كان فترة تغير سريع وضخم على غرار ما يحدث اليوم فقد أدت الثورات الصناعية والسياسية كما هو معروف إلى تفكيك بنية المجتمع ، و ظهر ما يعرف بالعلوم الاجتماعية التي اشتغلت بهذه المسائل ، و كان لكل من كارل ماركس(1818-1883) (Karl Marx) ودوركايم (1858-1918) وماكس فيبر[1] تأثير مهم ومستمر على علم الاجتماع وكان هؤلاء الثلاثة من ضمن الاوائل الذين نظروا للمجتمع بطريقة يطلق عليها الطريقة السوسيولوجية ، وبالرغم من أنهم اشتغلوا بنفس القضايا الاجتماعية و السياسية فهم يلتقون في نقاط ويختلفون في اخرى، وهذا ما دفعنا في هذا الفصل الى توضيح نقاط التوافق والاختلاف بين كل من (ماركس و فيبر) من جهة و (دوركايم و فيبر) من جهة ثانية لندرك المرجعية الفكرية اماكس فيبر .

المبحث الأول:

السياج الفكري لنظرية ماكس فيبر

أولا / ماكس فيبر و كارل ماركس:

يعتقد الكثيرون أن ماكس فيبر تأثر بالماركسية الفلسفية في شبابه لكنه ما لبث أن انصرف عنها إلى مذهب نيتشه في إرادة القوة والدعوة إلى السيادة وتخلل ذلك بين الحين والآخر نزوات ليبرالية ، ومن هذا المنطلق فإن فلسفة ماكس فيبر تتركز على وجود منازعات وتوترات وتصادمات في الحياة وفي المجتمع. فالانسان في صراع دائم مع الاطراف ومع المتقابلات وعلى هذا على الباحث عن فلسفة ماكس فيبر أن يقرأ بعناية أي كتاب من كتبه ليدرك التأرجح المستمر بين المعقول واللامعقول ، بين التجربة الحية والتصور العقلي.[2]

و قيل عن فيبر الكثير و البعض كما قلنا سابقا عده ماركسيا مرتدا أو ماركسيا بورجوازيا والبعض صوره كأبرز ملهمي علم الاجتماع الامريكي المعاصر، وبعض آخر يرى أن قدراته المنهجية والتحليلية تفوق بكثير

[1]/ ماكس فيبر Max weber فيلسوف اجتماعي واقتصادي ألماني ولد في مدينة ارفورت بألمانيا في أفريل عام 1864 ،من أسرة بروتستانتية ،وكان والده محاميا ،عمل في السياسة في عهد باسمارك وظلّ لعدّة سنوات عضوا في البرلمان ، عمل أستاذا في القانون في جامعة برلين عام 1892، وعمل أستاذا للسياسة عام 1894، وأستاذا للاقتصاد عام 1896، مات عام 1920.من أبرز مؤلفاته: العالم ورجل السياسة ، محاولات حول نظرية العلم الاقتصاد والمجتمع ، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية.

[2] عبد الرحمان بدوي : الموسوعة الفلسفية ،ج1، المؤسسة العربية النشر، بيروت ،1984 ، ص 824.

قدراته النظرية وبالتالي اسهاماته التنظيرية ، على ان الهيام به في الاوساط السوسيولوجية الأمريكية لا يتبدى فقط بهيام **تالكوت بارسونز" ParsonsTallcot** " وبأعماله ، بل وتأثر بكثير من مفهوماته والقضايا التي طرحها خاصة عندما قدم دراسته الشهيرة حول (**الأخلاق البروتستانتية وروح الراسمالية)** التي حاول فيها أن يناهض الفكر الماركسي في أساسه وجوهره . حيث قدم بعض الشواهد والمعطيات التي تفيد بأن الاقتصاد يمكن أن يكون متغيرا تابعا يتأثر بالمتغيرات الثقافية والروحية في المجتمع[1]. وهذا ما سنبينه في الفصل الثالث.

وهناك أيضا من يعتقد بأنه ليست صحيحة تلك القضية التي تحاول التنظير الاجتماعي لماكس فيبر بأنه قد تأسس بكامله من خلال المناقشة العميقة والمستمرة التي قادها فيبر مع شبح كارل ماركس غير أن الحقيقة تبين أن فيبر قد تقابل مع ماركس على نفس الساحات التي تعرض لها هذا الأخير، وليس لمواجهة الفرضيات الماركسية ، ولكن لأن الفرضيات أو القضايا التي تعرض لها ماركس كانت قضايا موضع حوار واهتمام من قبل السياق الاجتماعي المحيط او نسق التفكير العلمي حينئذ[2].

وهذه الدراسة تؤكد أن قضايا الحوار بين **ماركس** و **فيبر** كانت مفروضة من الخارج أي من السياق المحيط الذي حكم على كلا المفكرين أن يتعرض لذات الظواهر ومن الثابت أن طبيعة الرأسمالية الحديثة وأصلها كانت الظاهرة الاساسية التي جذبت انتباه كلا منهما.

ينظر كارل ماركس إلى المجتمعات الحديثة باعتبارها مجتمعات رأسمالية وكان الباعث على التغير الاجتماعي في العصر الحديث هو الضغط في اتجاه التحول الاقتصادي المستمر الذي يعد جزء من الانتاج الرأسمالي، حيث تعد الرأسمالية نظاما اقتصاديا أكثر دينامية من أي نظام سبقه.

كما تصور ماركس أن الرأسمالية كنظام اجتماعي اقتصادي قد تطور بصورة سريعة وبلغ الانتاج الصناعي ذروته ، ومن ثم يحتاج إلى رقابته وتوجيهه بصورة واعية ، خاصة وأنه موجه إلى تحقيق رغبات الطبقات الرأسمالية المالكة ،دون غيرها من الطبقات العاملة التي انتجته وتزيده قوة وتطوره بصورة مستمرة ومن ثم فإن الحاجة ماسة لظهور نظام اجتماعي جديد يلغي هذا النظام الرأسمالي وذلك من خلال إلغاء الملكية الخاصة واحلالها بالملكية العامة لوسائل الانتاج[3].

ومن هنا تبنى كارل ماركس منظورا ديناميا ومضادا للرأسمالية ومنها نظرية الاستغلال و فـــائض القيمة

[1] عبد الباسط عبد المعطي:اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، العدد 56،الكويت،اغسطس،1981،ص95.

[2] علي ليلة: ماكس فيبر والبحث المضاد في اصل الراسماليةا لمعاصرة، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، الاسكندرية ،2004 ، ص 27.

[3] عبد الله مُحَّد عبد الرحمان: النظرية في علم الاجتماع، دار المعرفةالجامعية، الاسكندرية، 2006، ص391.

و تنص **نظرية الاستغلال وفائض القيمة على** أن العمل بدوره بضاعة تمتلك سمة خاصة ، فهو ينتج قيمة أعلى من ثمن شرائه ، و بالفعل فالرأسمالية لا تشتري كل العمل المبذول من طرف البروليتاري، ولكنها لا تؤدي له الّا ثمن قوة عمله ، أي ما يكفيه للعيش والفارق القيمي في ما بين قوة العمل والعمل المنجز يشكل فائض القيمة الذي هو منبع رأسمال ، إن الرأسمال يخلق ذاته ويعيد خلقها باستمرار داخل علاقة الاستغلال الاجتماعية هاته[1].

ولقد سخر كارل ماركس من فكرة **تبادل العمل** حيث آمن بأن اسقاط النظام الرأسمالي والغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هما السبيل الوحيد لحل القضية الاجتماعية ، ولذلك لم يستخدم نظرية قيمة العمل بغية مساندة تبادل العمل أو برنامج الاعتماد المالي الاجتماعي ، بل ليبرهن على أن ديناميكا النظام الرأسمالي تدفع بالرأسمالية الي تدمير نفسها.

وتتلخص نظرية ماركس بأن كل ما يحدث في المجتمع من ظواهر ونظم ، إنما يرجع إلى العوامل الاقتصادية ، فالمادية الافتصادية هي اساس التطورات السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، فالتطور الفكري مثلا إنما هو انعكاس للمحركات الاقتصادية التي يرتكز عليها البنيان الاقتصادي، وما يقال عن التطور الفكري يقال عن صيغ الانقلابات والتطورات الاجتماعية ، فلا سبيل إذن لفهم طبيعة المجتمع قبل تحليل الدعائم الاقتصادية التي يقوم عليها ، لأن الحياة الاجتماعية في نظره من نتاج الجهاز الاقتصادي[2].

كما أن فهم فيبر لطبيعة المجتمعات وأسباب انتشار الحياة الغربية في العالم يتعارض تعارضا شديدا مع فهم كارل ماركس لها ، ففيبر يرى أن الرأسمالية باعتبارها طريقة متميزة لتنظيم المشروع الاقتصادي تعد أحد العوامل الاخرى الرئيسة التي شكلت النمو الاجتماعي في العصر الحديث.

وفي هذا الصدد لن اتعمق في تحليل الرأسمالية من منظور ماكس فيبر وساترك هذا لاحقا.

ولقد أكد تالكوت بارسونز أن ثمة صلة جوهرية بين ماكس فيبر وكارل ماركس حيث شكل هذا الأخير نقطة البداية لمختلف التنازلات العلمية لماكس فيبر، ذلك أنه من الثابت علميا أن ماكس فيبر قد تأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية حيث كان لكتابات و مناقشات ماركس المتعلقة بالراسمالية والاشتراكية تأثيرها الفعّال

[1] مصطفى حسيبة: المعجم الفلسفي ، دار اسامة للنشر والتوزيع ،الاردن ،2009، ص498 .

[2] محمّد احمد بيومي:تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية ،2009 ، ص207 .

في فترة تشكل أفكار ماكس فيبر مما دفعه إلى تركيز اهتمامه في المرحلة التالية على ظواهر النظام الاقتصادي الحديث باعتبارها تشكل نسقا اجتماعيا[1].

وما يمكن قوله في هذا الصدد أن ماكس فيبر لم يؤسس نظريته لمواجهته أو الرد على كارل ماركس وانّما نظر الى نفس الظاهرة– الرأسمالية – من منطق مختلف ومغاير تماما لمنطق كارل ماركس حيث أكد هذا الأخير أن العامل الاقتصادي هو المحرك الوحيد للتطور الاجتماعي ، فليس بصحيح ما يذهب إليه كارل ماركس حيث لا يمكن أن نتجاهل أثر البيئة والدين القومي والتراث الاجتماعي وكل مقومات الحضارة ، فكل هذه المظاهر يمكن أن تكون الدعائم الاساسية في تطور الحياة الاجتماعية بمختلف مظاهرها ومجالاتها .

أمّا فيما يخص الدين فإن قول ماركس " إن الدين أفيون الشعوب" ويقصد به أنه يعطل الناس عن العمل والانتاج هو، لأن الدّين قد يكون مضيعة للعمل والانتاج إذا تمسك به الناس بطرق صوفية أو أساليب دينية تبعدهم عن العمل والانتاج ، ولكن التاريخ مليء بالاثباتات التي تؤكد أن القيم الدينية كانت في كثير من الأحيان دافع إلى عمل أكبر وإلى نضال وكفاح أوسع فالإنسان الذي يعمل ويكون مزودا بعقيدة دينية يكون عمله دائما أكثر نجاحا وانتاجا[2].

ولعل دراسة ماكس فيبر عن الأخلاق البروتستانتية أكبر دليل على تدعيم هذا النقد الأخير الموجه إلى كارل ماركس كما سنرى لاحقا.

ثانيا/ماكس فيبر وايميل دوركايم :

لم يكتف دوركايم بتكرار آراء السابقين والاعتماد على مناهجهم في دراسة الظاهرة الاجتماعية من أمثال اوجست كونت "August-Comte " بل أضاف أشياء جديدة جعلت دراسته الاجتماعية متميزة.

ومن المؤكّد أنّ أفكار دوركايم احتلت من الناحية التاريخية مكانة بارزة في تطور النظرية الاجتماعية العامة ، بحيث يتفق الكثير من المفكرين على أنّ أفكاره قد لعبت دورا هاما في تأسيس الميلاد الحقيقي لنظرية علم الاجتماع كنظرية علمية ، وتحديد ملامحها التي تعيش بها حتى الآن ، ومن المنطقي أن تكون افكار دوركايم موضعا لاهتمام فيبر.

[1] علي ليلة: ماكس فيبر و البحث المضاد في اصل الراسمالية المعاصرة، ص28 .

[2]–Max Weber : le savant et le politique .Traduction de Julien Freund , introduction de Raymond .Aron , Librairie Plon , Paris, 1959 .p56

أولا/ لمكانة دوركايم في اطار نظرية علم الاجتماع :

ثانيا/ بالنظر الى طبيعة الاهتمام بمجموعة من القضايا التي شكلت اطار اتفاقيا وأخلافيا من قبل كلّ منهما.

ومن المتعارف عليه أن دوركايم كان امتدادا للوضعية الكونتية حيث نسجت الفلسفة الوضعية التي عبّر بها كونت عن تصوره لعم الاجتماع خيوط فكر دوركايم، و يظهر هذا بوضوح في تأكيده على ضرورة تناول الظواهر الاجتماعية كأشياء ، وهو التأكيد الذي يعني صراحة أو ضمنا محاكاة العلوم الطبيعية و تطبيق نظرتها وتصوّراتها على الظواهر المجتمعية، وفي مقابل ذلك نجد أن ماكس فيبر كان بالأساس امتداد للمثالية[1].

ولتوضيح أبعاد الاتفاق و الاختلاف بينهما سنركز على النقاط التالية:

– نجد أن فيبر يختلف عن دوركايم في قدرة العلم على مساعدة البشر في تحديد المجتمعات التي ينبغي أن يعيشوا فيها اذ يضيف ماكس فيبر الدين الى جانب العلم.

– و في مقالة لماكس فيبر عن الحياد الاخلاقي (القيمي) يعتبر فيبر الحياد الاخلاقي مبدأ منطقي وحكمة تتعلق بالسلوك وباعتبار الحياد الأخلاقي من المبادئ المنطقية فإنه على علاقة بمجال المعرفة ، التقويم والوقائع والتطبيق ، ومن هنا يبدو هذا الحياد على علاقة وثيقة بالنقد الجذري للمذهب الطبيعي وفي هذا يعتبر فيبر نظريته في القيم خاصة به،ممهّدا لها بمقدمات ثلاث ـ لانجدها في التصور الدوركايمي ـ هي :

–عدم التجانس بين المجال المعرفي و المجال القيمي.

– مدّ المجال القيمي إلى القيمة غير الأخلاقية.

– التصادم بين مجالات القيم التي لا سبيل لها لإيجاد حل لها بالوسائل العلمية[2].

ومن هذا يطالب ماكس فيبر من الأستاذ الأكادمي أو الباحث أن يميز لأسباب مبدئية بين مسألتين: الموضوعية المنطقية والمعرفة التجربية من جهة، وذاتية التقويمات العلمية وقابلية حملها بشكل موضوعي من جهة اخرى ، وحده من يعي لا تجانس هذه المسألة ، ومن يقوم بايضاحها أيضا وهو من يستطيع أن لا يجر سامعيه " لخلط مختلف المجـــــــالات مع بعضها البعض " و يتمكن كذلك من مجانبة الخطر حين يتطرق إلى

[1] عبد الباسط عبد المعطي:اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، ص:80 .

[2] ماكس فيبر:العلم والسياسة بوصفهما حرفة، تجورج كتورة، مركز دراسات الوحدة العربية للنشر، بيروت، ط1، 2011، ص90.

تأكيد وجود الوقائع " حيث يتخذ موقفا من مسائل الحياة الكبرى بالهدوء نفسه من دون تدخل المزاج. بمعنى أنّه على المعلّم الأكاديمي أو الباحث الذي تقع عليه مهمة التعامل أن يتخذ المواقف بموضوعية وحياد .

ولقد جعل **ماكس فيبر** واجب الجامعة مثلا في أيامه تبعا لذلك عدم تربية الإنسان على الثقافة فقط بل " **اعداده وجعله من أهل الاختصاص** " غير أنه يؤكّد أن التدرب على الاختصاص أمر صحيح لكن ليس الاختصاص الذي لا يربي في الوقت نفسه على الصلاح وعلى الاكتفاء الذاتي على اعتبار أن فحوى مسائل الحياة لا يمكن أن تحل بالتدرب على الاختصاص وحسب.

فعلى الباحث او المعلّم الأكاديمي أن يكون لديه إحساس بأهمية ما يمارسه البشر من أجل أن يدركه بشكل جوهري غير أن عليه كما قلنا سابقا بعد ذلك أن يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصي إذا أراد أن يؤسس صدقا لمسألة ذات طابع عاطفي[1].

وفي هذا يعتقد ماكس فيبر أنه على الإنسان الخبير ذو الاختصاص والذي يكون قادرا على النقد الذاتي الذي تعلم أشياء ثلاثة ، أولا ان يقنع بالانجاز البسيط لمهمة معطاة، ثانيا الاعتراف بالوقائع ولاسيما الوقائع الشخصية غير المناسبة، ثم أن يفصل تأكيده لها عن موقفه القيمي ، وثالثا جعل شخصه خلف الشيء أي أن يضغط قبل أي شي آخر، على الرغبة التي تتمثل بعرض ذوقه الشخصي أو مشاعره الاخرى دون أن يكون مدعوا لذلك[2].

و يميز لنا ماكس فيبر بين ثلاث انواع من التربية هي [3]:

-**التربية الكاريزماتية**: التي تقوم على أساس علم ليس هو بالعلم اليومي ، وهو العلم الذي يستند الى ما لدى الانسان من موهبة فطرية.

-**التربية الثقافية**: التي تقوم على أساس العلم الثقافي وبواسطته ينمي الانسان صفحة معينة.

-**التدرب على الاختصاص**: على اساس العلم التخصصي في اختصاص معين اذ يصبح الإنسان بفضل ذلك قادرا على القيام . بهذا يريد فيبر لصاحب الاختصاص النقدي أن يكون حرّا ومنفتحا وبالتالي على العلم أن يهيّء أناسا يقرّرون مصيرهم بأنفسهم.

---

[1] علي ليلة:ماكس فيبر والبحث المضاد في اصل الرأسمالية المعاصرة، ص36.

[2] ماكس فيبر :العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ص94 .

[3] - Max Weber : le savant et le politique .Traduction de Julien Freund , introduction de Raymond Aron Librairie Plon , Paris, 1959. P 69

بينما تؤكد المقولة الدوركمية المتعلقة بتحقيق الموضوعية والتي تؤكد على أن العلم هو الوحيد الذي يستطيع أن يوجه الى طرق الاصلاح واعادة بناء المجتمع ولما كانت الأزمة في جذورها اجتماعية فان العلم الذي يحلها هو علم الاجتماع هذا هو المبدأ الذي قامت عليه بحوث دوركايم في علم الاجتماع ، والاتّجاه إلى العلم وإلى علم الاجتماع بالذات ، هو الذي حقق الموضوعية في بحوث دوركايم، ولتحقيق الموضوعية في مجال الأخلاق اعتمد دوركايم على المعطيات المستمدة من واقع الحياة الاجتماعية واطلق على هذه الدراسة إسم فيزيقا العادات الاجتماعية واستطاع بهذا المنهج أن يحدّد الروابط بين الاخلاق المهنية والتطور الاقتصادي وبين الأخلاق الوطنية وبناء الدولة وبين الأخلاق التعاقدية وتطور البناء التشريعي الاجتماعي[1].

وبالتالي قد أدرك دوركايم ضرورة مراعاة الموضوعية الكاملة أثناء دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء وكذلك حين طالب الباحث أن يتجرد من عواطفه عند الدراسة وتعريف موضوعات الدراسة بطريقة دقيقة ومحددة وكذلك قدّم للباحث الاطار النظري المرجعي الذي يفسر في ضوئه الظواهر التي يتوفر في دراستها ويضرب مثالا عن ذلك مؤكدا أن دراسة الدّين على أنّه نسيج من الغيبيات قد يتضمن خطر سقوط الباحث وفشله في تأسيس فهم عميق للحياة الدينية للبشر[2].

وتشكل طبيعة النظرة إلى الحقيقة الاجتماعية موضع خلاف آخر بين دوركايم وماكس فيبر، حيث يعتبرها دوركايم خارجة عن الوجود الفردي وبالتالي فهو يؤسّس ما يسمى بالمنهجية الجماعية مبيّنا ان العلاقات الحقيقية بين (أنا) و(أنت) تستند الى ما نسميه نحن ، وأن الأفراد وحدات موضوعية تشتملهم وحدة اجتماعية هي وحدة التصور الجمعي، وعنده ان الحادث الاجتماعي (تصور جمعي) و(تمثل مشترك) وهو واقع خارجي بالاضافة إلى الافراد، ومفروض عليهم بالضرورة ، والمجتمع منظومة تصوّرات مشتركة تربط بعضها البعض قوانين اجتماعية شبيهة بقوانين الطبيعة[3].

وفي مواجهة ذلك نجد أن فيبر يؤسس ما يسمى بالمنهجية الفردية وقد ربط فيبر هذه الفكرة الاخيرة – المنهجية الفردية – بمفهوم الشخصية ، حيث توجه بالنقد ضد مفهوم الشخصية بمعناها الرومانسي – الجمالي– المفهوم الذي يسعي عبر تجربة الحياة وعبر تشكلها أن يرى في هذه القدسية عملا فنيا ، ولا تشير

[1] محمّد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية ،2000 ، ص186 .

[2] محمّد احمد بيومي:أسس وموضوعات علم الاجتماع،دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية،2007، ص156 .

[3] عادل العوّا: العمدة في فلسفة القيم،طلاس للترجمة والنشر،ط1،دمشق،1986، ص196 .

لا إلى النظرة الطبيعية ولا إلى النظرة الجمالية إلى ما يخطر في بال فيبر . إذ انهما لا تؤثّران في العلاقة الداخلية الثابتة التي يكتسبها الشخص من خلال سيرورة تربية تحدّد دلالة قيّمه وحياته. ما يتناسب مفهوم الشخصية هذا بشكل قريب جدا مع مفهوم الفردية الانسانية النسكية ، نسكية لان السّلوك المهني يتطلب خدمة قضية فوق شخصية وانسانية لان هذه القضية تفرض الارتباط الثابت بالقيمة النهائية ، فردية لان هذا الارتباط الثابت عبر سلسلة من القرارات النهائية يجب ان يكون ارتباط تم اختياره ايضا، وحين يقيّض لهذه الارتباطات ان تتحقق يتحول الشخص دون ارادة منه الى شخصية اذ انّها قد وجدت الآن شيطانها وتعلمت ان تطيعه ، اذ انها تستجيب للمطلب اليومي الذي يرفعها[1].

وما أراد فيبر تبيانه هو أنّه باستطاعة أيّ كان أن يجد شيطانه ، وأن يصبح شخصية ، وأن يمارس حياة حدّدها بنفسه، اذ ماقدّر له أن يقدم قضية فوق شخصية اختارها بنفسه وبتفان لا هوادة فيه ، ويفترض ذلك بالطبع أن لا تقف الأفكار وصور العالم التي بها يؤوّل المرء حياته ، والنظام الاجتماعي الذي يجب عليه العيش في وسطه بوجه الحافز النّسكي البدئي، كما يفترض ذلك أيضا، قبل أي شيء آخر، أن يكون الجيل واعيا بالعلاقة مع العمل الوظيفي، وأن يكون تحديده لوضعه ولتكوين شخصيته هادئا باتجاه الخارج ومقبولا من الداخل[2].

وكل هذا يعني أنه بينما كانت نقطة انطلاق السلوك عند دوركايم " جمعية" نجدها عند فيبر " فردية" وبينما هي متشيئة وخارجية ندركها من خلال مظاهرها ومؤشراتها الخارجية عند دوركايم، نجدها عند فيبر من الواجب أن نبحث عن المعنى الباطني المتضمّن في اطارها .

ويبقى بعد ذلك خلاف يتعلق بقضية التغير الاجتماعي ، اذ نجد لدى فيبر اهتماما بالتغير كعنصر أساسي من عناصر التفاعل الاجتماعي يفوق مستوى اهتمام دوركايم بهذه القضية ،حيث يعتقد دوركايم أنّ التغير الاجتماعي يحدث عندما يتبيّن انّه ضروري من الناحية الوظفية ، فالمجتمع قد ينجح أو يفشل في ادماج مجموعة من المهاجرين فيه، والتغير في نظره يحدث بطريقة تطوّرية (تدريجية) لا ثورية.

[1] ماكس فيبر : العلم والسياسة بوصفهما حرفة ، ص 208 .

[2]-Max Weber : économie et société, L'brairie Plon .Paris .p85

وفي المقابل يرى ماكس فيبر أن التغير الاجتماعي يمكن أن يحدث لأسباب عديدة فالأفكار والاختراعات الجديدة والحروب ، وصعود وأفول جماعات القوة والأفراد المؤثرين، وغيرها من العوامل كلها تساهم في التغير التاريخي وتعد جزءا منه.

كما يتضّح الاختلاف في هذا المجال أيضا في نظرة كلّ منهما لهذه القضية من خلال علاقتها بالقيم الدينية ، فبينما يؤكد دوركايم على القيم والمعايير في تحرير المساس بالحالة النظامية الراهنة ، نجد فيبر يوضح من خلال نظريته عن النبوة وعملية الصياغة العقلانية للكاريزما الدور الآخر للعنصر القيمي المتعلق بالقيم كوسيلة إرادية في إحداث التغير الاجتماعي[1].

وكل هذه الاختلافات لا تعني أن الموقف الفيبري كان رفضا للموقف الدوركيمي، إذ نلاحظ بينهما اتفاقات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر اتفاقهما على مواجهة الماركسية . حيث قام دوركايم بدحض المبادئ والأفكار والمسلمات العامة التي تقوم عليها ولا سيما حول الغاء الملكية الخاصة واحلال النظام الاشتراكي الشيوعي ، حيث رأي أن سبب مشكلة المجتمع الرأسمالي لا يمكن أن يكون سببا اقتصاديا بحتا بقدر ماهو سبب أخلاقي من الدرجة الأولى. و هذا ما أراد ماكس فيبر أن يؤكده .

[1] علي ليلة: ماكس فيبر والبحث المضاد في أصل الرأسمالية المعاصرة ، ص 38 .

المبحث الثاني : النظرية الاجتماعية لماكس فيبر

أوّلا / علم الاجتماع و معنى الفعل الاجتماعي:

لا يمكن فهم الفكر الأخلاقي لماكس فيبر دون التطرق إلى معنى الفعل الاجتماعي عنده ، كما أن فهم حقيقة الفعل الاجتماعي يتطلب منا المرور بمرحلة ضرورية هي علم الاجتماع ، وجاء في المعجم الفلسفي لجميل صيليا أن علم الاجتماع " **علم يبحث عن الظواهر الاجتماعية من جهة ما هي خاضعة لقوانين طبيعية كغيرها من الظواهر المادية أو الحيوية**"[1].

وعلى هذا يكون علم الاجتماع علم متميز عن العلوم الانسانية وعلم الحياة ، فهو يبحث عن طبائع بشرية خاصة ومتميزة عن تلك الموجودة في علم النفس وتتضمّن هذه الطبائع الظواهر الاجتماعية والعلاقات التي تربط بين افراد المجتمع والاخلاقيات السائدة فيه، والباحث الاجتماعي يهدف بصفة عامة إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والقضاء على المشاكل التي تواجه الأفراد في علاقتهم مع الآخرين[2].

وفي المقابل يعرّف لنا **ماكس فيبر** علم الاجتماع بقوله : " **هو علم يهدف إلى فهم الفعل الاجتماعي بطريقة شارحة ويفسّر بذلك أسبابه في تتابعه وتأثيراته ((الفعل)) هو هنا سلوك إنساني (سواء كان فعلا خارجيا أو داخليا ،تخلّيا أو قبولا) .كلّما وبالقدر الذي يربط به القائم بالفعل أو القائمون به معنى ذاتيا يجب أن يكون الفعل الاجتماعي ذلك الفعل الذي يتبع في معناه المقصود من قبل فاعله أو فاعليه سلوك أفراد آخرين ويتوجه في تتابعه حسب ذلك**"[3].

وبالتالي فإنّه كما كان الفعل يوصف بأنّه سلوك إنساني من حيث أن الفاعل أو الفاعلين يرون انّه دال من الوجهة الذاتية ، فإن المطلب العلمي للايضاح لا يلبّى الاّ اذا كان الفهم مفروضا من قبل ، وإلاّ تعذر علينا القيام بفعل له معنى[4].

لا يعتبر كل نوع من أنواع الفعل الاجتماعي ومن الأفعال الخارجية أيضا فعلا اجتماعيا تبعا لمعنى الكلمة المحددة هنا، إلّا أنّ الفعل الخارجي يستثنى من ذلك إذا كان يتوجّه تبعا لتوقعات سلوك عناصر مادية معينة

---

[1] جميل صليبا : المعجم الفلسفي ،ج1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، مادة علم الاجتماع ، ص 38 .

[2] زروخي الدراجي : اشكاليات أساسية في مناهج العلوم الانسانية والاجتماعية ، دار صبحي للطباعة والنشر ، ط1 ، 2013، ص99 .

[3] ماكس فيبر : مفاهيم اساسية في علم الاجتماع ،صلاح هلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2011، ص 30 .

[4] روديجر بوبنر: الفلسفة الألمانية الحديثة ، تفؤاد كامل ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ، 1996، ص162.

أمّا الفعل الداخلي فلا يعد فعلا اجتماعيا الّا إذا توجه تبعا لسلوك الآخرين ، فلا يعتبر على سبيل المثال السلوك الديني كذلك إذا توقف عند حدود التأمل والعلاقات المنفردة وما إلى ذلك.

وهكذا يمثل الفعل الاجتماعي الموضوع الحقيقي للعلم الاجتماعي وهو الفعل الموجه تجاه الاشخاص الآخرين الذين يمثلون أهمية للفاعل، وهو أيضا الفعل الذي نضفي عليه معنا ذاتيا ، ويحاول علم الاجتماع تقديم وصف تفسيري لتلك الأفعال مستخدما منهجية النمط المثالي[1].

ومن هنا ابدع ماكس فيبر تصنيفا رباعيا للفعل الاجتماعي على النحو التالي[2]:

1- **عقلاني غائي**: من خلال توقعات سلوك الأشياء في العالم الخارجي وسلوك الأشخاص الآخرين واستخدام تلك التوقعات بوصفها "**شروط**" أو "**وسيلة** " لغايات عقلانية مرجوة ومتوقعة، لأنها نجاح لصاحبها.

2- **عقلاني قيمي** : من خلال الاعتقاد الواعي في قيم أصلية أخلاقية أو جمالية أو دينية ، أو ذات تفسير آخر لا غنى عنها لأي سلوك معين و لا علاقة لها بالنجاح.

3- **انفعالي (عاطفي)** : شعوري خاصة وذلك بفعل تأثيرات راهنة وحالات شعورية .

4- **تقليدي** : من خلال العادة التي درج عليها الشخص.

ولقد سمي الفعل التقليدي الذي يمارس لأنه كان يمارس دائما عى ذلك النحو، والفعل العاطفي (الانفعالي) الذي يصدر عن العاطفة أو تحرّكه العواطف والفعل القيمي يعتبره فيبر فعلا رشيدا ويسميه أيضا الفعل الذرائعي أو الرشيد الذي يسعى نحو هدف محدد، و النوعان الثالث و الرابع فقط هما اللّذان يندرجان ضمن نطاق الأفعال الرشيدة ، اذ أنّه عندما يتم تبنّي تلك القيم فمن المؤكد أنّ الشخص سوف يسعى نحو تحقيقها بوسائل رشيدة فقد كان فيبر ينظر إلى تطوّر المجتمعات الحديثة كعملية ترشيد مضطرد يتخلّى فيها العالم عما يكتنفه من غموض[3].

وفي الأخير يمكن القول بأنّ فيبر يرى أن علم الاجتماع قبل كل شيء هو علم يختص بدراسة الفعل الاجتماعي، وهو يرفض الحتمية التي يمتدحها كل من ماركس و دوركايم ، ويعتبران الانسان ضمن نسيج من

[1] أنتوني جيدنز : مقدمة نقدية في علم الاجتماع ، تأحمد زايد وآخرون ، دار الكتب العربية ، ص 86 .

[2] ماكس فيبر : مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ص 56

[3] جان فرانسوا دورتيه : علم الاجتماع من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية دار الفرقد،دمشق ،ط1،2010،ص:49.

الضّغوط الاجتماعية غير الواعية ، ويعتقد فيبر بأنّ هذه الضغوط و هذه الحتميات لا تعدو كونها نسبية ليس المقصودأنها تحتكم قوانين مطلقة انّما توجّهات تترك على الدوام مكانا للمصادفة وللقرار الفردي وهو يعتبر أن المجتمع نتاج لفعل الأفراد الذين يتصرفون تبعا للقيم وللدوافع وللحسابات العقلانية.

كما أن ماكس فيبر جعل محور اهتمام علم الاجتماع يركز حول فهم المعنى الذي يعبر عنه الفعل الاجتماعي وعلى مسار علم الاجتماع أن يكون بالدرجة الاولى تفهّميا ، لم يكن فيبر مبتكر فكرة التفهم ، لكنه هو الذي أضاف إليها بعدا جوهريا ، وذلك يعني أن التفهم لدى فيبر يتوافق مع آداب النزاهة الفكرية ومع خصوصيته العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وهو يتحصل من التصور القائم على الاعتقاد بأن الظاهرات الاجتماعية تتأتّى من النشاط الذي ينطوي على معنى موجه من قبل الفاعلين ، وبعبارة أخرى يكشف التفهم عن المعنى الذي يقصده الأفراد الفاعلون في عمل معين أوعلاقة معينة [1].

و يلخص لنا ماكس فيبر معنى الفهم في النقاط التالية[2] :

1-الفهم الراهن: للمعنى المقصود لفعل ما يقول في ذلك " **إننا نفهم على سبيل المثال بصورة راهنة معنى جملة 2×2 =4 عندما نسمعها أو نقراها** " وهذا يعني أنه (فهم عقلاني راهن للأفكار)

2-الفهم الشارح: اننا نفهم تبعا للدوافع ما الذي يعنيه شخص ما ينطق أو يكتب جملة 2×2 = 4 عندما يفعل ذلك الآن ، وفي هذا السياق عندما نراه منشغلا بحساب في بيع وشراء ، أو تفسير علمي. تنتمي هذه الجملة الى سياقه حسب معناه المفهوم بالنسبة لنا، أي أنّها تكتسب علاقة معنى تكون مفهومة بالنسبة لنا وهو (فهم عقلاني للدوافع).

وبهذا يذهب فيبر إلى القول بأنّ الفهم علي المستوى الذاتي الفاعل يمكن التحقق منه كما يلي[3]:

أ/ الأولى تتمثل في الفهم الذي يركز على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتي. فنحن نفهم المعنى وراء استخدام بندقية لصيد حيوان، ونفهم المعنى الذاتي للأفعال غير العقلية التي تصدر عن انسان غاضب . وهذه المعاني نستطيع أن ندركها ، لأنّنا على وعي وادراك بالمقاصد الذاتية التي ترتبط بالأفعال المماثلة التي تصدر عنها .

[1] لوران فلوري :ماكس فيبر ، ت محمّد علي مقلد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2008 ، ص 30 .
[2] ماكس فيبر : مفاهيم أساسية في علم الاجتماع ، ص 31
[3] محمّد أحمد بيومي : أسس وموضوعات علم الاجتماع ، ص 165

ب/ الثانية تتمثل في فهم الدوافع أو التبرير الذي يقدمه الفاعل لسلوكه وذلك عن طريق مايسميه فيبر عملية التفحص الوجداني. فعن طريق المشاركة التعاطفية يمكننا أن نفهم السياق العاطفي الذي أدّى بالفاعل إلى إتيان مثل هذا السلوك.

ثانيا : النموذج المثالي (Idéal typique):

يذهب ماكس فيبر إلى تعريف النموذج المثالي **بقوله " النمط المثالي هو الذي نشكّله بصورة علمية للنمط الصرف لظاهرة متكررة ، ومثل تلك التصورات النمطية المثالية نجدها على سبيل المثال في المفاهيم والقوانين التي تضعها النظرية البحتة لعلم الاقتصاد السياسي، إنها تعرض المسار الممكن لفعل إنساني محدد إذا كان موجها بصورة عقلانية بحتة ، دون تأثر بأخطاء أو انفعالات، وإذا كان فضلا عن ذلك يتوجه بصورة قطعية تبعا لغرض معين (اقتصادي) فقط"**[1].

ولعل السبب الذي جعل ماكس فيبر يسعى إلى وضع هذا النمط هو أن هناك أنواع أخرى من الأفعال والعلاقات الاجتماعية التي لا يمكن التوصل اليها عن طريق المشاركة أو التفحص الوجداني ، ولهذا يقتضي دراسة هذه الأنواع –الاقتصاد مثلا – من الأفعال والعلاقات وجود أداة منهجية وهي ما أطلق عليها **فيبر النموذج المثالي** أو **النموذج الخالص**[2] .

كما أن فيبر تناول مفهوم النموذج المثالي بمعنى يختلف تماما عن مصطلح النموذج بالمعنى المعياري السائد للكلمة، النموذج المثالي " **للرأسمالية الغربية**". فهو ليس مثاليا بمعنى أنّه يقيم ايجابيا أوسلبيا، إنّه مثالي بالمعنى المفهومي للمصطلح . وذلك حتّى يمكن ادراك خصوصيات نموذج معين للرأسمالية أو خصوصيات أشكال معينة من التجمع الديني [3].

ويشرح لنا جوليان فروند النموذج المثالي عبر هذه المقارنة :

إنّ رجلا مثل هارباجون الذي يجسّد نموذج الرجل البخيل في عمل موليير المسرحي ، لا نقابله في الواقع لكن حتى يمكن إبراز معنى البخل في السجل المسرحي ، من الضروري التشديد بشكل متفرد على بعض

[1] ماكس فيبر : مفاهيم أساسية في علم الاجتماع ، ص 36 .

[2] محمّد أحمد بيومي : تاريخ التفكير الاجتماعي ، ص 166 .

[3] دانييل هارفييه ليجيه : سوسيولوجيا الدّين ، ترجمة درويش الحلوجي ، المشروع القومي للترجمة ، ط1 ، 2005 ، ص 91 .

سمات شخصية ما ، هذا هو معنى النهج الخاص بالنموذج المثالي الذي يوجزه فيبر في المقطع التالي:" **نحصل على نموذج مثالي بالتشديد بشكل متفرّد على وجهة نظر أو على أكثر من وجهة نظر ثم العمل على خلق أو تشييد العديد من الظواهر المعطاة المعزولة، منتشرة ومنفصلة عن بعضها، ظواهر نجدها أحيانا بأعداد كبيرة وأحيانا بأعداد صغيرة، وفي مواضع لا تماثل مطلقا تلك الخاصة بوجهات النظر المختارة سابقا، وذلك حتى يمكن تكوين لوحة من الفكر المتجانس ، لا نجد مثل هذه اللوحة الفكرية عمليا في نقائها المفهومي في أي مكان : انّها يوتوبيا. سيكون هدف العمل التاريخي تحديد إلى أي درجة يقترب الواقع أو يبتعد عن هذه اللوحة المثالية في كل حالة معينة ، إلى أي قدر يجب مثلا إضفاء صفة "اقتصاد مديني" بالمعنى المفهومي، على الظروف الاقتصادية لمدينة معينة . هذا المفهوم مطبّقا بحذر ، يقدم الخدمة النوعية التي ننتظرها لفائدة البحث ومن أجل الوضوح "** [1].

كما بين ماكس فيبر أن أفضل طريقة في دراسة المعاني الذاتية للظواهر الاجتماعية تتمثل في استخدام النمط المثالي، ويوضح في ذلك أن بناء أسلوب الفعل الرشيد الخالص يعني تقديم نمط من السلوك إلى الباحث في علم الاجتماع ليساعده في الدراسة ، لأنّه عندما يقارن السلوك الفعلي بهذا النمط يستطيع فهم الأساليب التي يتاثر بها هذا السلوك الفعلي بالعوامل غير الرشيدة، ومن هنا تكون هذه العوامل سبب الانحراف عن السلوك المتوقع ، وهذا النمط يعتمد أسلوبا مثاليا مفترضا يمكن المضاهاة في ضوئه و المقارنة أيضا التي تساعد على فهم ماهو قائم [2].

كما حاول ماكس فيبر أن يفصل مفهومه بخصوص النموذج الاجتماعي المثالي عن مفهوم النموذج التاريخي المثالي، والنماذج الاجتماعية كما أرادها فيبر ليست مقولات نظرية تكون مدخلا لأمر آخر ، بواسطتها أو بارتباطها ببعضها البعض يمكن التوصل إلى وضع نظرية متماسكة تتناول المجتمع ، بل انها أدوات ووسائل يمكن بواسطتها اجراء مقارنة مع المادة التاريخية ، وبالتالي فإنه على هذه النماذج أن تؤدي الى فهم اجتماعي للمادة التاريخية [3].

---

[1] انظر: دانييل هارفييه : سوسيولوجيا الدّين ، ص 92.

[2] عبد الباسط عبد المعطي : اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، ص93.

[3] تيودور فون أدورنو : محاضرات في علم الاجتماع ، ت جورج كتورة ، مركز الانماء القومي ، لبنان ، 1986 ،ص 102.

ثالثا/ البيروقراطية " La Bureaucracy ":

يعتبر ماكس فيبر من بين الذين اهتموا بموضوع البيروقراطية، ويتناولها كظاهرة معقدة ، حيث تشير إلى النظام الذي يهدف من وجهة نظر المشاركين فيه إلى تحقيق غاية لا شخصية ، ومن ثم فهي تستند إلى أسلوب لتقسيم العمل يتضمن التخصص ، وهذا التقسيم يرتبط به تقسيم آخر للسلطة ينتظم بشكل تدريجي، بحيث يتضمن عضوا مركزيا على قمته ، و يتحدد دور كل مشارك ويدرك أن الوظيفة التي يتصرف من خلالها بحكم السلطة الممنوحة لها وليس لتأثيره الشخصي [1].

ويعتبر فيبر أنّ السلطة البيروقراطية هي سيطرة الادارة و التي تؤلف الحكومة أو الخدمات العامة ، وتشمل الأعمال الأهلية ، والتجارية ، و الصناعية . فالبيروقراطية هي السلطة التي تشكل أسس الادارة الصناعية أو التجارية حيث يعتبر أن البيروقراطية الناضجة تنمو وتتقدم بصورة واضحة في المجتمعات الأكثر نموّا كالمجتمعات الأوروبية الحديثة سواء كان ذلك في ادارة الدولة أم في القطاع الخاص، وهذه البيروقراطية موجودة في الدول الرأسمالية على وجه الخصوص [2].

ويجعل فيبر من الموظّف المتخصّص حجر الزاوية في الدولة والاقتصاد الحديثين في الغرب يقول في ذلك :" **إنّ البيروقراطي ، الموظّف المتخصّص ذاته، هو من غير شك ، ظاهرة قديمة جدّا في مجتمعات عديدة وفي أشدّها تباينا غير أنّه لم يظهر حول هذه المسألة لا في عصر آخر ، ولا في قارة أخرى ، كما أنّ الوجود الاجتماعي برمته ، وبأشكاله السياسية والتكنيكية والاقتصادية مرتبط بالضرورة وبشكل كلي بتنظيم المتخصصين والكفوئين ، فالمهام الأساسية في الحياة اليومية هي بين أيدي بيروقراطيين مؤهلين على الصعيدين التقني والتجاري** "[3] .

ويقدّم لنا ماكس فيبر نموذجا مثاليا يعدّه النموذج البيروقراطي المثالي أو النقي ويرتكز على عدة مقومات أساسية و هي :

- الحقوق و الواجبات مصاغة على شكل لوائح و قواعد محدّدة .
- تعيين الأفراد وترقيتهم يكونان على أساس مواهبهم و مؤهلاتهم وخبراتهم، وليس على أساس المكانات الموروثة أو المحاباة الشخصية .

[1] مولود زايد الطبيب : علم الاجتماع السياسي ، منشورات جامعة السابع من ابريل ، ليبيا ، ط1 ، 2007 ، ص104.
[2] حنان علي عواضة : السلطة عند ماكس فيبر ، مجلة الأستاذ ، العدد 206 ، بغداد ، 2013 ، ص : 5 .
[3] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ترجمة محمّد علي مقلّد ، مركز الانماء القومي ، لبنان ، 1998،ص 6 .

- ضمان احتفاظ الفرد بعمله ، الاّ اذا ثبت عدم ملائمته فنّيا له .
- تنظيما للمكانات في وظائف تندرج هرميا ، بحيث تكون كل وظيفة أدنى تحت اشراف الوظيفة الأعلى .
- تقسيما للعمل بمقتضاه يكون كل موظف في التنظيم مسؤولا على نوع واحد محدّد من العمل .
- السلطة والحقوق و الواجبات للوظيفة وليس لشاغل الوظيفة، ومن يشغل وظيفة معينة فانّه انّما يكون ممثلا للتنظيم الرسمي .
- رواتب محددة و معروفة مقدما لدرجة الوظيفة في التنظيم الهرمي .
- ينظر الى النّشاط الاداري كعمل يستغرق كل الوقت والجهد ، ولا ينشغل الموظّف بعمل آخر يأخذ من الوقت الذي ينبغي أن يكرّس للعمل الرسمي .
- سجلاّت محفوظة لكل عمل أو نشاط يقوم به التنظيم .
- عدم وجود مجاملات أو محاباه أو خواطر شخصية أو أيّة اعتبارات غير رسمية ، و الجميع داخل التنظيم على قدم المساواة ، فلا تحيز ولا محاباة [1].

إنّ صعود البيروقراطية وعلى الرّغم من الايجابيات التي تحملها الاّ انّها تخلق صعوبات، وهذا ما لاحظه **فيبر** حول العلاقة بين البيروقراطية و النظام الرأسمالي فيقول " **إنّ نمو البيروقراطية تحت رعاية الرأسمالية عموما خلق حاجة ملحة إلى إدارة مستقرة حازمة ، مركّزة و محسوبة هذه الحاجة ذات أثر مهلك على كل أنواع الادارة واسعة النطاق، وحدها العودة في كل حقل ، السياسي ، الديني و الاقتصادي ....الخ الى التنظيم على نطاق ضيق كفيلة بالتخلص من تأثيرها على نحو بارز** "[2]. وبهذا فإنّ النظام الرأسمالي في نظر فيبر هو من أفرز وانتج ما يسمّى بالبيروقراطية .

وبهذا يمكن أن نلخّص البيروقراطية في مظهرين هما :

أ- المظهر الإيجابي: و يتمثل في التقسيم الدقيق للعمل وفقا لتخطيط مدروس يقوم على التخصّص. حيث تكون الكفاءة والمقدرة والخبرة هي الأساس لا الوساطة و المحاباة ، كما أن الحصانة التي توفرها البيروقراطية للأفراد طالما يلتزمون بالقواعد ويثبتون جدارتهم بالعمل ، وضمان تدرجهم وارتقائهم فيه ، تجعلهم يتحمّسون ويبدعون .

[1] مولود زايد الطبيب : علم الاجتماع السياسي ، ص 105 .

[2] نقلا عن : بور ريكور ، محاضرات في الايديولوجيا و اليوتوبيا ، ترجمة فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ليبيا، ط1 ، 2002 ص293 .

ب- المظهر السلبي : يتمثل في وجود فجوة لا يمكن تجاهلها بين البيروقراطية المثالية والتطبيق الفعلي لها ويرجع ذلك بصفة خاصة الى عدم فاعلية قنوات الاتصال والاعتماد على التقارير و التعقيد في صياغة اللوائح بحيث لا يستطيع المواطن العادي فهم تلك اللّوائح المتعلقة بمصالحة وبحقوقه وواجباته[1].

[1] مولود زايد الطبيب : علم الاجتماع السياسي ، ص 106.

المبحث الثالث : فكرة العقلنة عند ماكس فيبر

اولا/ مفهوم العقلنة عند فيبر:

قبل التطرق الى فكرة العقلنة عند ماكس فيبر علينا أوّلا أن نتطرق إلى ضبط مفهوم العقلانية كمصطلح حيث جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن" **العقلانية Rationalisme هي القول بأولوية العقل** " [1].

والعقلانية تدل على قدرة الإنسان على المحاكمة الواعية بعيدا عن سيطرة المشاعر والعواطف والانفعلات والعصبيات والايديولوجيات وعلى الاختيار الصائب و تعليل الآراء وترشيدها والبرهنة عليها ، وبهذا تقودنا العقلانية الى الاحتكام الى المنطق العقلي في قبول استدلالات الآخرين أو رفضها، وعن طريق العقل تلتمس الصحة في أفكارنا وفي أفكار غيرنا، وبذلك تغدوا العقلانية المؤطّر لذلك النشاط الفكري أو الثقافي الذي يتمحور حول النظر الى الأشياء والحكم عليها من المطابقة أو عدم المطابقة مع المقاييس والمسوّغات العقلية حيث تغدو العناية بهذه المطابقة بمثابة ميل ونزوع أو اتجاه أو منهج تفكير مميز في النظر الى الوجود [2].

أما ماكس فيبر فيعرّف العقلانية على انّها " **مفهوم تاريخي يتضمن عالما كاملا من التناقضات وعلينا أن نبحث عن الروح التي ولد منها هذا الشكل الملموس من الفكر و من الحياة العقلانيين** " [3].

. ولقد أدرج ماكس فيبر عناصر مميزة للعقل وتتمثل في:

– هناك اضفاء طابع رياضي تقدّمي على التجربة والمعرفة ، وقد بدأ من العلوم الطبيعية ونجاحاتها الباهرة ، يمتد الى العلوم الأخرى و الى سلوك الحياة نفسه .

– هناك الالحاح على ضرورة التجارب العقلانية والبراهين العقلانية في تنظيم العلم وكذلك في سلوك الحياة

– هناك نتيجة هذا التنظيم وهو الشيء الحاسم عند **فيبر** ، ألا وهو تولد وتدعيم تنظيم متمرس تقنيا للموظفين يصبح الشرط (المحتم) المطلق لوجودنا كله ، وبهـــــذه الخاصية الأخيرة ، يحدث الانتقال من العقل النظري الى

[1] جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج2 ، ص : 91 .

[2] مجموعة من الباحثين : مبادئ الفلسفة العامة ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2015 ، ص : 127، 128 .

[3] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، صص : 41 ، 42 .

العقل العملي وبهذا نجد في علم الاجتماع عند فيبر أنّ العقلانية الصورية تتحول الى عقلانية رأسمالية [1].

كما أدخل **ماكس فيبر** مفهوم العقلنة لكي يحدّد شكل فاعلية الاقتصاد الرأسمالي، وتشكل العقلنة عنده جوهر التحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عرفتها سيرورة التحديث للتقدم العلمي والتقني وبالقدر الذي تدخل المعرفة العلمية والتقنية في هذه المؤسسات فانّها تقضي على المشروعيات التي كانت تتأسس عليها المجتمعات القديمة قبل فترة التحديث[2].

وبتوظيفه لمفهوم العقلنة عمل فيبر على البحث عن انعكاسات المعرفة العلمية والتقنية على مؤسسات المجتمع التي دخلت عصر التحديث، وعملية العقلنة هذه لا يمكن فهمها عند فيبر إلا بالرجوع إلى ما يسميه "بنزع الهالة السحرية عن العالم" و يقصد بهذا المصطلح تجريد هذا العالم من أشكال القداسة والانسلاخ من المواقف والتمثلات السحرية والغيبية التي عرفتها المجتمعات الأوروبية قبل دخولها مرحلة الرشد المتمثلة في الحداثة [3]. وبهذا يمكن القول أن العلم في نظر ماكس فيبر هو الذي عقلن العالم وخلّصه من السحر والخرافة والغيبيات وأن فكرة العقلنة قد نبعت من الثورة التي أحدثتها النهضة العلمية الحديثة .

ويرى ماكس فيبر بأن البيروقراطية هي التعبير التنظيمي عن العقلانية ، وقد تنبّأ بنمو التنظيمات البيروقراطية في الحجم والأهمية، و بالتالي يزداد تشكيل الأقسام المتخصصة لكي تعمل من أجل تطبيق المعرفة العلمية الخبيرة ، ويذهب فيبر الى أنّ العقلانية بهذا المعنى تظهر أولا على الصعيد الاقتصادي ثم تنتشر فيما بعد الى الأصعدة الاجتماعية الأخرى ، وفي نقده للماركسية يذهب الى أن الاشتراكية لن تحرّر المجتمع من الميول العقلانية والبيروقراطية الموجودة في الرأسمالية بل انها على العكس سوف توسع من نطاق العقلانية والبيروقراطية [4].

ومن بين التساؤلات التي تناولها ماكس فيبر حول خصوصية العالم الغربي حيال المجتمعات هي : **إلى أية عوامل ينبغي أن نعزو ولادة العالم الحديث و على وجهة التحديد نشوء الرأسمالية ؟ على ما تقوم وحدانية الغرب ؟** هذا السؤال شغل كل التراث السوسيولوجي ويمكن القول أن " **معرفة الأصول التي انبثق منها الغرب والعالم الحديث تفسر لماذا شهد الغرب وحده التطو مع نهوض قوي للمجتمع والدولة البيروقراطية الحديثين**

[1] هربرت ماركيوز : فلسفات النفي ، ت مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الكلمة للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 2011 ، ص 210 .
[2] يورغن هابرماس : العلم والتقنية كايديولوجيا ، ت حسن صقر، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1 ، 2003 ، ص 43.
[3] كمال بومنير : جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2010 ، ص 76 ، 77.
[4] محمود عودة : أسس علم الاجتماع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 136 .

وللميول الى عقلنة العالم تلك هي التساؤلات الأساسية في التحليل السيسيولوجي وبهذا فإنّ فرضية ماكس فيبر حول خصوصية العالم الغربي تكمن في نظره حول فكرة العقلنة"[1].

و العقلانية في نظر ماكس فيبر كمنهج في التفكير يخصّ الغرب وحده أو بعبارة أخرى هي ظاهرة غربية فهو يرى بأن كل حضارة تنصب في حضارة الغرب تقوم بوظيفة النقل لا بمهمة الاستيعاب والتنظير باستثناء الحضارة اليونانية التي استطاعت اعطاء الأسس الرياضية وذلك لأن الهندسة في الهند لم تعرف البرهنة العقلانية كما أنها تجهل بدورها المنهج التجريبي الذي هو ناتج عصر النهضة الأوروبي، يؤكد ذلك بقوله " **إنّ البحث العميق لدى المؤرّخين الصينيين كان يعوزه منهج توسيديد Thucydide . وقد كان لمكيافيلي ، من غير شك ، أسلاف في الهند ، الاّ أن كل السياسات الآسيوية كانت تفتقر الى طريقة منهجية يمكن مقارنتها بطريقة أرسطو ، وكانت تعوزهم بشكل خاص المفاهيم العقلانية. إنّ الأشكال الفكرية الدقيقة في منهجيتها الضرورية لكل عقيدة شرعية عقلانية ، الخاصة بالقانون الروماني وخلفه ، القانون الغربي ، هي أشكال غير موجودة أبدا خارج أروبا ،وذلك بالرغم من البدايات الحقيقية المعروفة في الهند ، مع مدرسة ميمامسا Mimàmsà ، وبالرغم أيضا من تدوين القوانين بصورة واسعة ، كما هي الحال في آسيا القديمة واستنادا الى كل ما عرف من كتب القانون الهندسية أو غيرها . فالغرب وحده هو الذي يعرف في المقابل صرحا قانونيا على غرار الحق الكنسي "** [2] .

لا يبدو هنا في هذا الموقف أنّ **فيبر** يحيد عن الرأي السائد لدى جمهور واسع وفي أوساط الفلاسفة والمثقفين الغربيين عموما في العصر الحديث، والقائل ببداية حقيقية للفلسفة والعلم مع اليونان وفيبر هنا لا يعود بالعقلانية كنمط تفكير ومنهج للسلوك الخاضع للحساب ومواءمة الوسائل مع الغايات الى أروبا النهضة والأنوار والحداثة إنّما يجذّر هذا المنهج العقلاني عند الاغريق معتبرا مثل كثير من الفلاسفة الغربيين أن اليونان هي موطن التنوير العقلاني ومصدر التحول العميق في مسار الفكر البشري .

وبهذا يؤكّد ماكس فيبر الغرب هو أساس كل علم نعترف اليوم به، وذلك في جميع مجالات الحياة ، سياسيا اقتصاديا، اجتماعيا ، حضاريا، وهو لا ينكر بأنّه ظهرت مجموعة من العلوم والفنون في الحضارات الأخرى غير أنه يؤكّد بأنّها لم تجد أسسا منهجية تقوم على فكرة العقلنة. وهذا لم يحدث إلا في الغرب وبالتالي فإنّ العقلانية ظاهرة غربية محضة .

---

[1] لوران فلوري : ماكس فيبر ، ص 36 .

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 5 ، 6.

غير أن دعوة ماكس فيبر هذه عنصرية محضة فالتنظير كان موجودا في الهند وقد قيل كثيرا عن أثر المنطق الهندي عند نيايا Nyaya على أرسطو، وكذلك عن أثر الرياضيات الهندية على الرياضيات اليونانية ، والتنظير كان موجودا عند المصريين القدماء وكذلك عند المسلمين ، وغيرها من الفنون والعلوم التي ظهرت في الحضارات القديمة وهذا امر يثبته التاريخ و قد لا يحتاج الى جدل، إن هذه الفكرة الشائعة التي يروّج لها ماكس فيبر، من أن الشرق مصدر الأديان والغرب موطن التفكير الحر و النظر العقلي المجرد أبعد ما تكون عن العلمية، ونشأت بدافع من العنصرية و التّجني في البحث العلمي و الكثير من الدراسات الاستشراقية أكدت ذلك.

ثانيا/ عقلنة المعتقدات الدينية:

يعرف **لالاند** الدين بقوله :" **مؤسّسة اجتماعية متميّزة بوجود ايلاف من الأفراد ، المتحدين بآداء بعض العبادات المنتظمة وباعتماد بعض الصّيغ بالاعتقاد على قيمة مطلقة ، لا يمكن وضع شيء آخر في كفّة ميزاتها ، وهو اعتقاد تهدف الجماعة الى حفظه ، بتنسيب الفرد الى قوة روحية أرفع من الانسان ، وهذه ينظر اليها امّا كقوة منتشرة ، وامّا كثيرة ، وامّا وحيدة هي الله**" [1]

أمّا الدين في نظر فيبر هو " نوع خاص من أشكال العمل الجمعي أو الطائفي يستوجب دراسة الظروف الخاصة به والنتائج التي يفضى اليها ولا يتناول فيبر الأديان باعتبارها نظما من المعتقدات ، انّما ينظر اليها باعتبارها أنساقا لتنظيم الحياة منظومات استطاعت أن توحّد من حولها جموعا كبيرة من المؤمنين بشكل خاص [2].

ولقد قدم لنا ماكس فيبر علم اجتماع أعطاه اسم علم الاجتماع الديني وذلك في مؤلفه (مجموعة من مقالات في علم الاجتماع الديني) وهو يعني بأنّه علم اجتماع ديني خاص بعدّة أديان مثل الكونفوشيوسية والهندوكية واليهودية على أن علم الاجتماع الديني الخاص لا يقتصر في الغالب على تناول الآراء الاجتماعية في الدين الذي يتناوله ذلك أن هناك كثيرا من الأديان التي ليست لها آراء اجتماعية ، ولكنّها مع ذلك أدّت الى ظهور كيانات اجتماعية خاصة تكون موضوع البحث السوسيولوجي الديني [3].

وليس من همّ السوسيولوجيا دراسة جوهر الظاهرة الدينية ، ولا مساءلة هذه الديانة أو تلك في مدى صحّتها أو زيفها، و انّما يتركّز شأن عالم الاجتماع في رصد السلوك الذي تتيحه الظاهرة الدينية ، كونها تستند إلى بعض التجارب الخاصّة و إلى غايات وتصوّرات محدّدة.

---

[1] أندري لالاند : موسوعة الفلسفة ، ت منشورات عويدات ، بيروت ، ط2 ، 2001 ، ص 204.

[2] دانييل هارفييه : سوسيولوجيا الدّين ، ص : 93.

[3] عبد الله الخريجي : علم الاجتماع الديني ، رامتان للنشر و التوزيع ، جدّة ، ط 2 ، 1996 ، ص 168.

" فالدّين ظاهرة سوسيولوجية ذات توظيفات شتّى على أصعدة الأيديولوجيات السياسية والاقتصادية و على العالم أن يدرس هذه الظاهرة بذاتها... فالمطلوب علميا هو درس ما يحدث في المجتمع وتحديد نسبة الحدث الدّيني وقوّته، وتبيان أثره وتأثيره " [1] .

وقد كتب البروفسور راينهارد بندكس Reinhard Bendix أحدث من أرّخ لفيبر كتب عن دراسته الشهيرة عن الدين حيث يقول " **إن الموضوعات الرئيسية الثلاثة كانت تدور حول الكشف عن أثر الأفكار الدينية على الأنشطة الاقتصادية ، وتحليل العلاقة بين التدرج الاجتماعي والافكار الدينية وتحديد وتفسير السمات المميزة للحضارة الغربية** " [2].

وعلى هذا اهتم ماكس فيبر على عكس ماركس الذي يعتبر أنّ العامل الدينامي متجل في الصراع الاجتماعي الاقتصادي الذي يضع وجها لوجه طبقات اجتماعية متضادة و فيبر نحى اتجاه معاكس لذلك معتبرا أنّ الدّين هو المحرّك الأساسي .

وتعد بالنسبة الى فيبر صورة الزعيم الكارزمي ، في سياقات التغيير الاجتماعي رئيسية ومن هنا جاء الاهتمام البالغ الذي أولاه ماكس فيبر للشخصيات الدينية ، ذات الخاصيات الكارزمية ، ممن تحمّلت مهام التجديد الكبرى . في المجالات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وبنظرة فاحصة في موضوع تشكّل القيادة السياسية ، درس فيبر الكارزما وبالتحديد نوعا متفردا من القيادة الملهمة ذات صبغة نبوية وتبعا لذلك فالنّبي هوذلك الشخص الذي يأتي بمستجدّ مقابل الدين السائد في عصره [3].

وبهذا يصـــــل مـــــاكس فيبر الى أنّ الفكر الديني كسائر الأشكال الفكرية، فهو خاضع لمسار العقلنة حيث أن الشخص الاجتماعي باختصار يسعى الى انتاج تفسيرات لظاهرات تعنيه أو تشغل باله كالألم و البحث عن السعادة وما شابه . أو حسبما يؤهله دوره الاجتماعي إلى الاهتداء في سوق الأفكار الى تفسيرات قابلة ، في نظره للتصديق واعتناقها على نحو يحقّ له أن يستخرج منها خطوطا مسلكية مفيدة وليس يلزم عن هذا التصوّر العقلاني الذي يدافع عنه فيبر أنّ الفرد يعتنق المعتقدات الدينية عـــلى أثر عملية استدلال

---

[1] يوسف شلحت : نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية – النّصرانية – اليهودية – الاسلام) ، تحقيق أحمد خليل ، دار الفارابي ، بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 15.

[2] اليكس انكلز: مقدمة في علم الاجتماع ، تمحمّد الجوهري ، دار المعارف ، ط6، 1983،ص43 .

[3] سابينو أكوافيفا : علم الاجتماع الديني ، تعز الدين عناية ، دار كلمة للنشر ، أبو ظبي ، ط1 ،2011 ، ص58 .

منطقي فهو يعتبر أنّ هذه المعتقدات ، مهما كانت طبيعتها ، تنتقل بالتربية والتنشئة الاجتماعية عموما لافتا إلى أنّ المعتقدات الجديدة تفرض نفسها بواسطة الكاريزما تلك السلطة الخاصة التي يمنحها الشخص الاجتماعي للمجدّد الذي يحرضه على قبول ما يعرضه عليه من نظريات ومعتقدات جديدة.

نستنتج مما سبق أن ماكس فيبر كان له دور كبير في ارساء معالم علم الاجتماع فهو لم يكن لا مقلّدا ولا ثائرا على الفلسفات السابقة عنه فهو مثلا اهتم بمعيار كارل ماركس لتفسير عوامل التغير الاجتماعي وفي حين رأى ماركس بأنّ العامل الدينامي متجلّ في الصراع الاجتماعي الاقتصادي وفي المقابل يرى فيبر بأنّ حل هذه المعضلة في التغير تكمن في اتّجاه آخر وهو العامل الديني .

أمّا فيما يخص نقاط التوافق والاختلاف بين ماكس فيبر و دوركايم فهناك نقاط اختلاف عديدة ذكرناها سابقا الاّ انهما يتفقان مثلا في دحضهما لبعض المبادىء الماركسية .

ولعلّ السبب الذي دفعنا الى المقارنة بينهما هي مقارنة مفروضة من الخارج أي من السياق المحيط الذي حكم على هؤلاء المفكرين أن يتعرضوا لذات الظواهر ومن الثابت أنّ طبيعة الرأسمالية وتأثيرها على بنية المجتمع خاصة المجتمع الغربي حيث كانت الظاهرة الأساسية التي جذبت انتباههم و بالتالي كان لكل منهم رأيه الخاص في هذا المجال .

وفيما يخص النظرية الاجتماعية لماكس فيبر فقد اعتبر علم الاجتماع بأنّه العلم الذي يحاول أن يجد فهما تفسيريا للفعل الاجتماعي. وهذا الأخير يعتبره سلوك انساني يضفي عليه الفاعل معنا ذاتيا ، وبهذا اعتبر أنّ وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هي الفرد الفاعل ، ويذهب الى أن دراسة الفعل الاجتماعي تتطلب وجود أداة منهجية أطلق عليها النموذج المثالي .

ويعتبر أيضا ماكس فيبر من أشهر من اهتم بموضوع البيروقراطية من خلال دراساته لعلم الاجتماع حيث عدّها ظاهرة غربية موجودة في الدّول الرأسمالية وان النظام الرأسمالي هو الذي انتج النظام البيروقراطي .

وفي مقابل ذلك رأى بأنّ البيروقراطية هي التعبير التنظيمي عن العقلانية وعدّ هذه الأخيرة بأنّها ظاهرة غربية محضة إذ أدخلها ليحدّد شكل فاعلية الاقتصاد الرأسمالي ، و تشكّل عنده فكرة العقلنة جوهر التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في فترة الحداثة . وبهذا أيضا دعا إلى ضرورة عقلنة المعتقدات الدينية لأنّ الفكر الديني كسائر أنواع الفكر الأخرى و أنّه من أهم المجالات الفكرية التي تساهم في تعديل سلوك الانســـــان و بالتالي تغيير و تعديل بنية المجتمـــع ، ولا يمكن القول بأن ماكس فيبر كان مقلدا لدوركايم أو كارل

ماركس أو كان مبدعا من الفراغ، إذ أنه استفاد من أفكار الاثنين تارة من النقد و التعديل و تارة أخرى من الاستناد إلى بعض أفكارهما لتكون هذه المرجعية الفكرية فيما بعد أساسا لتفسير أخلاق الرأسمالية والربط بينها وبين البروتستانتية.

الفصل الثاني : قراءة ماكس فيبر لبعض الطوائف الدينية

انطلق ماكس فيبر في تفسيره لفعالية النظام الرأسمالي من مبدأ هام مفاده أن الرأسمالية تستمد كيانها وتوجيهها وفعاليتها من البروتستانتية، في حين تميزت باقي الديانات كالإسلام و اليهودية بالجمود و العزوف عن العمل ومن هنا كان لزاما علينا أن نقف على موقف فيبر من هذه الاسلام و اليهودية و كيف نظر للبروتستانتية؟

المبحث الأوّل: البروتستانتية كمذهب ديني أخلاقي

أوّلا / التعريف بالبروتستانتية :

تعبر حركة الاصلاح الديني من الحركات التي ظهرت في أروبا و التي بفضلها ظهرت الديانة البروتستانتية أو المذهب البروتستانتي Protestantism ، ويمكن اعتبار حركة الاصلاح الديني في أساسها ثورة على البابا والكنيسة الكاثوليكية والثورة على صكوك الغفران وحق البابا، وفي تلقّي اعترافات عبادة الله تعالى ومفاتيح الجنّة [1].

والكنيسة البروتستانتية حركة اصلاحية بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر متأثّرة بدعوات الاصلاح السابقة لها ، ومن ثمّا تحوّلت من حركة اصلاحية داخل الكنيسة الى حركة عقائدية مستقلّة ومناهضة لها [2] . وبهذا سمّي الذين اعتنقوا مبدأ الاصلاح الكنسي و خرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت لأنّهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجا يسمّى بالانجليزية بروتسنت وبهذا سمّي اللّذين أمضوا القرار بروتستنت أي المحتجّين. [3]

ثانيا / التأسيس و أبرز الشخصيات:

جاء اندلا ع حركة الصلاح الديني البروتستانتي التاريخية في أوروبا مع وصول روح النزعة الفردية النهضوية الى مجالات اللاّهوت والعقيدة الدينية في داخل الكنيسة.

ولقد عرفت الحركة البروتستانتية ثلاث زعماء في ثلاث دول مختلفة و هم كالتاّلي:

1/ البروتستانتية الألمانية:

يتزعمها مارتن لوثر"Martin Luther " (1483_1546) وهو مصلح ديني مسيحي شهير ومؤسّس المذهب البروتستانتي بألمانيا .

---

[1] ابراهيم مصطفى : الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ،دار الوفاء ، الاسكندرية ، د ت ، ص 55.

[2] مانع بن حمّاد الجهني : الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، دار الندوة العالمية ، د ت ، ص 621.

[3] محمّد أبو زهرة : محاضرات في النّصرانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ت ، ص 153.

– في سنة 1405 نال شهادة أستاذ في العلوم من جامعة أرفورت ولكنّه لم يتم دراسته القانونية وتحوّل بعدها الى الدراسات اللّاهوتية ، وفي سنة 1507 عيّن قسيسا لرعاية كنيسة كنتبرغ بألمانيا، وفي سنة 1510 دفعته نزعته الدينية واخلاصه للكنيسة ورجالها الى أن يحج الى روما ليتبرّك بالمقر الرسولي في روما ، وهناك التقى بالقدّيسين والزّهاد من الرهبان ، ولكن ما إن حل في روما حتى هاله ما رأى من دعاوى الغفران (غفران الذنوب ، امتلاك سر التوبة ، حق منح صكوك الغفران)، وتفشّي مظاهر الفساد والانحلال الخلقي في الطبقات العليا من الكنيسة بوجه أخص ، ومن ثم عاد الى ألمانيا خائبا رجاؤه ،ومستنكرا ما رأى ، وأصبح منشغلا بوضع خطة لإصلاح الكنيسة [1] .

وفي هذه الفترة كان البابا في أشدّ الحاجة الى المال ، ولم يجد سبيلا للحصول عليه ، الاّ عن طريق اصدار و بيع صكوك الغفران ، أي الصكوك التي تشترى بها مغفرة الله للذنوب، وكان يطالب الناس بشراءها ليغفر الله ذنوبهم وبهذا أصدر **لوثر** بيانا يحتوي على خمس وعشرين قضية ضدّ صكوك الغفران[2].

وفي الوقت الذي نشط في تأليف الكتب التي تعلن مبادئه ، والتي أصبحت حديث الطبقة المتعلّمة في ألمانيا ممّا زاد في التفاف الناس حوله ولهذا كله أصدر البابا بحرمانه في عام 1520 ، وفي عام 1529 أراد الامبراطور تنفيذ قرارات الحرمان ضدّ مارتن لوثر فأعلن حكام الولايات الانجيلية في ألمانيا أنّهم مستعدّون لطاعة أوامر الامبراطور والمجلس في كل القضايا الواجبة الاّ التي تتعارض مع الكتاب المقدّس أو التي يوجد لها نص فيه ، وبالتالي رفضوا تسليم لوثر لمندوبي الامبراطور ، وعندما رأى لوثر صعوبة تحقيق دعوة الاصلاح الكنسي كرّس جهده لقضايا الايمان في الكنائس الانجيلية الناشئة [3] .

ولقد كان هم لوثر هو سعادته الأبدية وخاف من الشيطان خوفا لم يقدر كاهنه على ازالته ، وكان يبحث عن أقوى الوسائل التي يرضي بها الله ليتقي جحيمه ، وبعد أن شرع في انكار حق البابا في بيع المغفرة رفض ماله ولكنيسته من السلطان رفضا تاما ، وأنحى باللائمة على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وصرّح بأنّه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدّس وأنّ النّجاة الأبدية لا تكون الاّ بفضل الله وكرمه.

[1] مانع بن حماد الجهني الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ص 622 .
[2] عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، ج2، ص 971 .
[3] مانع بن حماد الجهني ، الموسوعة الميسرة ، ص 622 .

2/ البروتستانتية الروسية :

من زعمائها الروخ هولدريج زوينجلي" Ulrich Zwingl " (1484_1531م)

- ولد ونشأ في سويسرا وأصبح قسّيسا و هو أحد دعاة الحركة الانسانية التي بدأت مع عصر النّهضة دعا الى نفس المبادئ التي دعا اليها مارتن لوثر، وبدأ دعوته في زيوريخ بسويسرا ، وقد قاوم استعمال الطقوس والصور والتماثيل في الكنائس كما عارض فكرة عزوبة رجال الاكليروس، وحبّذ المسؤولية الفردية في المعتقد حيث لاقت دعوة زوينجلي التأييد من السلطات الحكومية في مدينة زيوريخ ، فشاعت لذلك دعوته وأصبح زعيما للبروتستانت في جنوب ألمانيا ومعظم سويسرا [1].

ذابت تعاليم زوينجلي في تعاليم جون كالفن التي ارتكز في بعضها على عقيدته .

3 / البروتستانتية الفرنسية : مع جون كالفن"Jean Calvin " (1509-1564) :

- كالفن مصلح ديني فرنسي ، ولقد أشار الباحثون في فكر كالفن الى أنّه تأثّر بالرواقية ، كما يشهد على ذلك شرحه لرسالة (الحلم) ، كما تأثّر بأفلاطون اذ هو يذكره في 18 موضعا من كتابه (نظم العقيدة المسيحية) ولكن ربّما كان تأثّره بالأفلاطونية راجعا الى التأثير الكبير الذي كان للقديس أوغسطين في تكوين فكر كالفن والبعض يحدّد بأنّ فلسفته تقوم أساسا على انكار ثلاثة مذاهب وهي :

1/ انكار مذهب المؤلهة ، لأنّه يؤكد أنّ الكون يعتمد على الله اعتمادا تامّا .

2/ انكار مذهب وحدة الوجود (أو الحلول بتعبير أدق) لأنّ كالفن يؤكّد علوّ الله على الكون وشخصيته المتميّزة عنه.

3/ انكار حرية الارادة الانسانية والقول بالقضاء والقدر الشاملين كل أفعال الانسان [2] .

ولم يحدّد مارتن لوثر نظرية المشيئة الأزلية تحديدا تامّا ، وقد عرّفها كالفن بقوله : " **إنّ الله اختار منذ الأزل أناسا للنّار وآخرين للجنة** "[3]. وهكذا رأى كالفن الذي لم يفعل سوى ايضاح زعم القديس أوغسطين أنّ الله قادر على كل شيء، بمعنى أنه يخلق أناس ليكونوا خالدين في النار غير مبال بأفعالهم وفضائلهم ، و هكذا جعل كالفن هذه الفكرة أساس مذهب لا يزال أكثر البروتستانتيين تابعين له.

---

[1] مانع بن حمّاد الجهني : الموسوعة الميسّرة ، ص 623 .

[2] عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، ج2 ، ص 871 .

[3] غوستاف لوبون : روح الثورات والثورة الفرنسية ، ص 34 .

وعدّل كالفن فكرة لوثر في اشراف الحكومة على الكنائس لما رأى ما يحدث للبروتستانت في فرنسا وطالب بأن تحكم الكنيسة نفسها بنفسها، وهذا ما أدّى الى انقسام الكنيسة الانجيلية الى لوثرية وكالفينية (الاصلاحية – الكالفينية) وتميّزت حركته بالانتشار في فرنسا فأصبحت الدين الرسمي في أسكتلندا كما امتدّت إلى شرق سويسرا ، و اعتنقها معظم سكان المجر .

وتتلخّص مبادئ حركة الاصلاح الديني أو المذهب البروتستانتي في النقاط التالية :

1- جعل الكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد للمسيحية ، ورد كل الأحكام التي لم ترد فيه ، وجعل الخضوع التام الواجب على المسيحي لنصوص الكتاب المقدّس وحدها .

2- ليس للكنيسة حق غفران السّيئات .

3- من حق كلّ مسيحي قادر على أن يقرأ الكتاب المقدّس أن يفسّره ، فحق التفسير والفهم للكتاب المقدّس لم يعد مقصورا على رجال الدين فقط ، وبهذا فقد أزال البروتستانت ذلك الحجاب الذي أقيم بين المسيحي وكتابه .

4- عدم الصلاة بلغة غير مفهومة .

5- انكار الرهبنة ، وعدم الاعتراف بضرورتها واباحة الزواج لرجال الدين .

6- عدم اتّخاذ الصور والتّماثيل في الكنائس وعدم السجود لها .

7- لا تؤمن بنظام الكهنة ولا بالبخور في الهيكل .

8- لا تؤمن بالصوم كفريضة ولا بالأعياد التي تقيمها الكنائس الكبرى [1] .

ومن هنا يمكن القول أنّ حركة الاصلاح لم تكن اصلاحا للمسيحية ، وانّما كانت للكنيسة وسمّيت كنائسهم بالكنيسة البروتستانتية أو الانجيلية ، اشارة منهم الى أنّ الانجيل هو المصدر الوحيد لفهم المسيحية بعيدا عن تفسيرات رجال الدّين وتنتشر البروتستانتية في كل من ألمانيا ، انجلترا ، الدنمارك ، هولندا ، سويسرا ، النرويج وأمريكا الشّمالية.

[1] محمّد علي أبي زهرة : محاضرات في النّصرانية ، ص 168.

ثالثا / بعض المبادئ الأخلاقية للديانة البروتستانتية:

لقد بينا سابقا على أنّ البروتستانتية فرقة من النصرانية وتسمّى أيضا بالانجيلية حيث يتّبعون الانجيل دون سواه ، ويعتقدون أنّ لكل قادر الحق في فهمه ، فالكلّ متساوون ومسؤولون أمامه ، ويتّبعون الانجيل وما ورد فيه في جميع نواحي الحياة ، الاقتصادية والسياسية والأخلاقية وبالتالي فانّ المبادئ الأخلاقية التي يتّبعونها مستمدّة من الإنجيل ذاته ، وقد ورد في الانجيل ما يؤكّد هذا القول في رسالة يسوع عندما أرسل تلاميذه لكي يبشّروا قوله " **من قبلكم قبلني ، ومن قبلني قبل الّذي أرسلني** " [1] ، وفي هذا قصد على أنّ الانجيل هو الكتاب الذي يدلّ على ما جاء به يسوع من عند الله وبالتالي من آمن به وبمبشّريه فقد آمن بمن أرسلهم وبهذا دعوه الى اتّباع الانجيل دون سواه .

ولقد ورد في الانجيل مجموعة من المبادئ الأخلاقية وكذلك بعض التقاليد الأخلاقية التي تقوم عليها الديانة المسيحية أو ان صحّ التعبير الطائفة البروتستانتية لكونها تتّبع الانجيل حرفيا دون سواه وسنحدّد بعض هذه المبادئ على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

فمثلا تقوم الأخلاق المسيحية على مبدأ التآخي ، ولما تحدّث يسوع عن النصح الأخوي أكّد على ضرورة الرجوع الى الانجيل حيث ورد في قوله : " **اذا أخطئ أخوك اليك ، فاذهب اليه وعاتبه بينك وبينه ، فإذا سمح لك تكون ربحت أخاك ، وان رفض أن يسمع لك فخذ معك رجلا أو رجلين ، حت تثبت كل شيء بشهادة شاهدين أو ثلاثة ، فان رفض أن يسمع لهم ، فقل للكنيسة ، وان رفض أن يسمع للكنيسة فعامله كأنّه وثني أو جابي ضرائب** " [2] ، وبهذا فانّ الكنيسة وبالتحديد الكتاب المقدّس تعمل على الاصلاح بين الناس وبالتّالي فإنّ اخلاق التسامح والتآخي مستمدّة من الانجيل ذاته .

كما ورد ايضا أنّ الشيطان يشهد بالكتاب المقدّس وبأهمّيته والدليل على هذا القول النص التالي " **إن كنت ابن الله فألق بنفسك ، لأنّ الكتاب يقول : يوصي ملائكته بك ، فيحملونك على ايديهم لئلاّ تصدم رجلك بحجر** " [3] .

وبهذا تعتبر الكنيسة التي تعتمد على الانجيل عمود الحق في الأخلاق المسيحية وهذا ما ورد في الرسالة الاولى الى ثيموثاوس حيث يقول الرسول بولس لتلميذه " **أكتب اليك هذه الرّسالة راجيا أن أجيء اليك**

---

[1] الانجيل : دور الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط ، بيروت ، ط1 ، 1995 ، ص 28 .

[2] نفسه ، ص 53 .

[3] نفسه ، ص7.

بعد قليل ، فاذا أبطأت أ فعليك أن تعـرف كيف تتصرّف في بيت الله ، أي كنيسة الله الحي ، عمود الحق ودعامته " [1] .

وبهذا فإن الديانة البروتستانتية تقوم على مبدأ أساسي وهو الاعتراف بالكتاب المقدّس فقط وجعله المرجع الرئيسي والرّسمي و لابد من العودة اليه لحل وفهم مشاكل الناس وخاصّة الأخلاقية منها، وهذا ما ورد في الرسالة الثانية **لتيموثاوس** "**فالكتاب كلّه من وحي الله ، يفيد في التعليم والتّفنيد والتقويم والتّأديب في البرّ ، ليكون رجل الله كاملا مستعدّا لكلّ عمل صالح** " [2] .

ومن بين المبادئ التي دعت اليها البروتستانتية أيضا أنّها لم تكتف بتعليم الايمان وحده بل ربطته بالأعمال وفي هذا الصدد ورد في رسالة يعقوب قوله " **ولكن لا تكتفوا بسماع كلام الله من دون العمل به فتخدعوا أنفسكم ، فمن يسمع الكلام ولا يعمل به يكن كالنّاظر في المرآة صورة وجهه ، فهو ينظر نفسه ويمضي ثم ينسى في الحال كيف كان** " [3] . وفي هذا شرح لقيمة الأعمال ولكن على حسب الايمان المسيحي ومعناه أنّ القول يجب أن يطبّق بالعمل على أرض الواقع من خلال أفعاله وتصرّفاته التي تعكس مدى صدق ايمانه .

ولقد وردت أيضا رسالة تؤكّد هذا " **ماذا ينفع الانسان ، يا اخوتي أن يدّعي الايمان من غير أعمال ؟ أيقدر هذا الايمان أن يخلّصه ؟ فلو كان فيكم أخ عريان أو أخت عريانة لا قوت لهما ، فماذا ينفع قولكم لهما ... أنت تؤمن أنّ الله واحد ؟ حسنا تفعل وكذلك الشياطين تؤمن به وترتعد ... ترون اذا ، أن الانسان يتبرّر بالأعمال لا بإيمانه وحده** " [4] . وهكذا فانّ البروتستانتية تدعو الى الايمان وذلك في صورته الواقعية المطبّقة من خلال التعامل مع الآخرين لا على الايمان النظري الذي لا يجسّد أفعالا خيرية على أرض الواقع وبالتّالي فإنها تدعو الى أخلاق واقعية عملية تعكس صورة الايمان الحقيقي .

كما جاء بأنّ الغاية من التّجارب في هذه الحياة ماهي الاّ اختبار لحقيقة ايمان البشر، وهذا ما ورد في رسالة القديس بطرس الاولى " **أنتم اللّذين بالإيمان تحرسكم قدرة الله لخلاص سينكشف في اليوم الأخير، به تبتهجون ، مع أنّكم لا بدّ أن تحزنوا حينا بما يصيبكم الآن من أنواع المحن التي تمتحن ايمانكم كما تمتحن النّار الذهب ، وهو أثمن من الذهب الفاني فيكون أهلا للمديح والمجد والاكرام يوم ظهور المسيح** "[5] .

---

[1] الانجيل، ص 16 .
[2] نفسه، ص 585.
[3] نفسه ص 625.
[4] نفسه، ص 627 .
[5] نفسه، ص 633 .

و من بين الأخلاقيات التي تدعو اليها البروتستانتية عدم التمييز بين الفقير والغني وهذا ما جاء في رسالة يعقوب قوله " **وما دمتم ، يا اخوتي ، مؤمنين بربّنا يسوع المسيح له المجد ، فلا تحابوا أحدا ، فان دخل مجمعكم غني في أصبعه خاتم من ذهب وعليه ثياب فاخرة ، ثم دخل فقير عليه ثياب عتيقة ، فالتفتم الى صاحب الثياب الفاخرة فقلتم له ((اجلس أنت من هنا في صدر المكان ، وقلتم للفقير : ((قف أنت هناك ألا تكونوا ميّزتم أحدهما دون الآخر وجعلتم أنفسكم قضاة ساءت أفكارهم ؟**" [1]

وفي هذا دعوة صريحة الى الزهد في الحياة وعدم تكنيز و تكديس الأموال في الحياة الدنيا، وهذا ما جاء في رسالة متى قول يسوع : " **لا تجمعوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يفسد السوس والصّدأ كل شيء وينقب اللصوص ويسرقون ، بل اجمعوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد السوس والصدأ اي شيء ولا ينقب اللصوص ولا يسرقون فحيث يكون كنزك يكون قلبك** " [2]. وهذا يعني انّ الكنز الحقيقي هو الايمان والقيام بالأعمال الصالحة التي تخدم الرب في الدنيا والآخرة وليس ملذات الدنيا وشهواتها.

وتدعو أيضا الأخلاق البروتستانتية الى المحبة والتآخي بين الأفراد وهذا ما جاء في رسالة **يوحنا الأولى** : " **أحبّوا بعضكم بعضا فالوصية التي سمعتموها من البدء هي أن يحبّ بعضنا بعضا ، لا أن نكون مثل قايين الذي كان من الشرير فقتل أخاه... ونحن عرفنا المحبّة حين ضحّى المسيح بنفسه لأجلنا، فعلينا نحن أن نضحي بنفوسنا لأجل اخوتنا . من كانت له خيرات العالم ورأى أخاه محتاجا فأغلق قلبه عنه، فكيف تثبت محبّة الله فيه ، يا أبنائي ، لا تكن محبّتنا بالكلام أو باللسان بل بالعمل و الحق** " [3].

بالإضافة الى هذا فإنّ المسيحية البروتستانتية تقوم على مجموعة من التقاليد نذكر على سبيل المثال أنّ المسيح لم يبن كنيسته على ايمان بطرس لكن على بطرس نفسه وهذا ما جاء في رسالة **متى "وأنا أقول لك أنت صخر وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي وقوات الموت لن تقوى عليها وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السّماء ، وما تحلّه في الأرض يكون محلولا في السماء**" [4].

---

[1] الانجيل، ص 625 .

[2] نفسه ، ص 14 .

[3] نفسه، ص 656 .

[4] نفسه، ص 48 .

وكذلك سلطة البابا مثلا تكون متتالية عند البروتستانت فقد عبّر عنها يسوع برمز المفتاح وبتسليمه هذه السلطة المتتالية من بابا الى بابا عبر الأجيال وقد ورد في الانجيل قوله : " **سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السماء وما تحلّه في الأرض يكون محلولا في السماء.** "[1]. والمفتاح هنا لا يعني السلطة فقط ولكن انتقال هذه السلطة من رآسة الى رآسة ، وهذا ما فعله المسيح مع بطرس بعدما اعترف بالمسيح بقوله " **أنت المسيح ابن الله الحيّ** " [2] وبدوره المسيح سلّم بطرس رآسة الكنيسة على الأرض .

ولقد أكّد العديد من المفكرين على أنّ الأخلاق من وجهة نظر العقيدة المسيحية مستمدّة من القضايا الدينية أو اللاّهوتية ، فانطلاقا من العقيدة المسيحية التي تتضمّن أنّ الله هو الخالق لكلّ شيء ، فانّ علينا أن نسلّم بأنّ ما هو صحيح أو مستحسن أو الزامي من الوجهة الأخلاقية هو كذلك ، ليس بسبب النتائج المترتبة عليه . بل لأنّ الله يأمرنا به ومن المفكرين اللذين دافعوا عن هذه الفكرة هو اللاهوتي البروتستانتي **اميل برونر** حيث يقول في ذلك : " **انّ الخير يجد أساسه في ارادة الله ... فالله ليس فقط قيما على القانون الأخلاقي وعلى القواعد الأخلاقية ، بل خالقها... فلا شيء حسن الاّ السلوك المطيع ، الارادة المطيعة ... ولكن هذه الطاعة لا تمنح لقانون أو مبدأ يمكن أن يعرف مقدّما ، بل فقط لإرادة الله السيّدة ، الحرة . ان الخير يتكوّن من قيامنا دائما بما يأمر به الله في أيّ لحظة** "[3].

ويعتبر كتاب الأخلاق (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) لماكس فيبر من بين الكتب التي تحتل مقام الصدارة في علم الأخلاق – علم اجتماع القيم – فقد اهتم فيبر في هذا الكتاب بوصف نسق جديد من القيم وهي الأخلاق البروتستانتية حيث كان دور هذا الكتاب فعالا في القرنين السادس والسابع عشر وكيف أنّ هذه القيم قد شكّلت نسقا اجتماعيا جديدا – روح الرأسمالية وهذا ما سنوضحه لاحقا – وفي هذا الكتاب يعطي فيبر اهتماما للدّين – البروتستانتي – ليس على أنّه لاهوت ... ولكن على أساس أنّه مصدر للقيم ونسق للدافعية [4] .

---

[1] الانجيل، ص 48 .

[2] نفسه، ص 48.

[3] نقلا عن : عادل ضاهر : الأخلاق والعقل ، دار الشروق ، الاردن ، ط1 ، 1990 ، ص 193 .

[4] محمّد احمد بيومي : أسس وموضوعات علم الاجتماع ، ص 175.

ولقد درس ماكس فيبر الأخلاق وذلك في دراسته الشهيرة (**الاخلاق البروتستانتية**) حيث بحث في الديانة البروتستانتية و أخلاقها ومدى تأثيرها على سلوكات الأفراد يقول في ذلك : " **لا يهمّنا بالتأكيد ، ما كان يجري تعليمه نظريا ورسميا في كتب اللّاهوت الأخلاقي في تلك الفترة ، بغض النظر عن مدلوله العملي الذي يمكن أن يرتديه بفضل نظام الكنيسة ، والجهد الرعائي والتبشير، ما يهمّنا يختلف عن هذا اختلافا جذريا انّه اكتشاف الحوافز البسيكولوجية التي تمدّ جذورها الى المعتقدات والممارسات الدينية التي ترسم للفرد سلوكه وتبقيه عليه** " [1]. وفي هذا الصدد يعتقد **فيبر** بأنّ القيم تتحوّل في الحياة اليومية الى اتّجاهات توجّه الحياة طبقا للمثل الدينية التي تساهم في رسم سلوكات الفرد وتنمو الحركات الدينية كقوّة ثورية ويحدث التغيّر الاجتماعي الخاص بسلوكات الأفراد، وبهذا يدرس ماكس فيبر الاخلاق الدينية المتواجدة في البروتستانتية من خلال الآثار التي تعكسها على سلوكات الافراد من خلال الواقع المعاش والمطبّق، وليس دراسة اللاهوت الأخلاقي في جانبه النظري وفقط .

ولقد اختار ماكس فيبر الديانة البروتستانتية في دراسته حول العلاقة بين البروتستانتية وظهور الرأسمالية على اعتبار أنّ البروتستانتية ديانة تحث على العمل حيث استدلّ بما ورد في الانجيل في رسالة القديس بولس قوله : " **ونوصيكم أيّها الاخوة ، باسم الرّب يسوع المسيح أن تتجنّبوا كل أخ بطال...((من لا يريد أن يعمل لا يحق له أن يأكل))** " [2] ، وبهذا يعتبر **فيبر** أنّ العمل يشكل هدف الحياة كما ثبته الله أنّ آية القديس بولس هذه صالحة لكل انسان ومن غير تحفّظ وأنّ الامتناع عن العمل هو مؤشّر عن غياب النعمة [3]

ومن خلال هذه الدراسة سعى ماكس فيبر الى الربط بين الاخلاق البروتستانتية وبين مختلف النشاطات وعلى وجه الخصوص المجال الاقتصادي وهذا ما سنعرضه وبالتفصيل في موضع آخر.

[1] ماكس فيبر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 67 .
[2] الانجيل ، ص 567.
[3] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 136.

المبحث الثاني : قراءة ماكس فيبر للإسلام و اليهودية

أوّلا / موقفه من الإسلام :

لقد كان تأثير الإسلام في أوربا خاصة في القرون الوسطى شاملا لميادين كثيرة ، ومهيمنا على جوانب متعدّدة، ويمكن القول أنّ هذا التأثير عمّ بدرجة كبيرة مستويات الحياة الأوروبية جميعا، وذلك في جميع النّواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها .

ومن بين القضايا التي أثيرت في هذا المجال موقف المسيحية من الاسلام فكانت هناك آراء ومواقف متعدّدة إزاء الاسلام ، ولكن في القرن السادس عشر حصلت تغيّرات كبرى في موقف المسيحيين من الإسلام بوصفه منافسا جدّيا في ميدان العقل والعلم ، حتّى أنّ مارتن لوثر تحكّم على تصوّرات القرون الوسطى (الأوروبية) حول الاسلام ، وقدّم لتأييد وجهة نظره هذه عيّنات ونماذج تقليدية مما أسماه خرافة الأوروبيين وجهالاتهم حيال الإسلام وإضافة الى ذلك رفض لوثر فكرة الحروب الصليبية ونادى بدلا من ذلك بوجوب اتّخاذ موقف صبور ومتسامح مع الأتراك [1].

ولكن سرعان ما تغيّرت فكرة لوثر حيث أنّه كان من الأوائل الذين صاغوا (نموذجا) جديدا كلّيا للموقف من الاسلام مستخدما اياه – كنموذج سلبي – في جداله العنيف مع الكاثوليكية حيث يقول : " **البابا والاسلام يشكّلان من – حيث الجوهر– العدوّين اللّدودين للمسيح وللكنيسة المقدّسة ، ولكن اذا كان الاسلام يمثّل جسد المسيح الدجال ، فإنّ البابا هو رأسه** ". وبهذا الشكل أصبح الاسلام – كما يراه لوثر – مرادفا لمفهوم الخطيئة داخل الكنيسة المسيحية ، وبهذا المعنى فانّ الكنيسة الكاثوليكية ذاتها أصبحت في نظر لوثر هي الاسلام وبدءا من هذه اللحظة أصبح المفكّرون المسيحيون في أروبا كثيرا ما يعودون الى مبادئ الاسلام ، ليس بهدف المناظرة والمساجلة معه مباشرة ، بل من أجل استخدام نموذجه كوسيلة في المجادلات اللاهوتية والفلسفية ، وهكذا فانّ اتّهام بعضهم بعضا بالإسلامية أصبح هو الموضة الرائجة بصورة عجيبة بين اللاهوتيين البروتستانت والكاثوليك في القرن السادس عشر، حيث رأى البروتستانت في الإسلام وبالتالي في الكاثوليكية عملا دون ايمان أمّا الكاثوليك بدورهم فقد اتّهموا الإسلام في أثناء مجادلاتهم المضادة للبروتستانتية بأنّه يجسّد الايمان بلا عمل [2] .

[1] أليسكي جورافسكي : الاسلام والمسيحية ، دار المعرفة ، الكويت ،1996 ، ص 84 .
[2] نفسه ، ص 84 .

ونحى ماكس فيبر نفس المنحى متّخذا موقفا – إن صح القول – معاديا من الاسلام حيث اهتم في دراسته الشهيرة حول الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية بالتأكيد على أهمّية الديانة البروتستانتية في تجسيدها للتطوّر الحاصل خاصة في الغرب وذلك في ميدان الاقتصاد وبالتحديد في ظهور النظام الرأسمالي كأحد الأنظمة المهمّة في التطور الاقتصادي، واعتمد ماكس فيبر في مقاربته لهذا الموضوع وتأسيسه لمجمل أفكاره على مقاربة تعتمد على المقارنة بين مجموع الطوائف الدينية كالإسلام واليهودية والكاثوليكية والبروتستانتية .

و تناول ماكس فيبر الدّين الاسلامي وعالمه الحضاري بالدّراسة في كتاباته كما فعل مع اليهودية والمسيحية بل وعالم الدّيانات الهندية والصينية ، ولكن شذرات واشارات كثيرة عن الاسلام وتاريخه تتخلّل كتاباته كلّها وعمد ماكس فيبر الى جمع نظم وتقاليد الحكم والضبط الاجتماعي والسياسي بالشرق وعالم الاسلام تحت مصطلح الباتريمونيالزموس " Patrimonialismus" وتأتي معالجة هذا الشكل من أشكال الحكم ليس في الأخلاق البروتستانتية بل ضمن معالجته لأشكال الشرعية و اشكالياتها في مجموعته الكبرى الاقتصاد والمجتمع ويرجع ماكس فيبر تخلّف المنظومة أو ظهور الظاهرة – الرأسمالية – الى الأنماط السياسية وأنظمة الحكم التي سادت في تلك المجتمعات، ومن ضمنها المجتمع الاسلامي فجاءت دون تطوّر رأسمالي مكتمل بتلك المجتمعات [1] .

ويعتقد ماكس فيبر بأنّ الاسلام كدين ليس مانعا من موانع الرأسمالية أو أنّه ليست هناك علاقة علّية بين الاسلام و الباتريمونيالزموس، و مع ذلك فانّ الشروط الاجتماعية والاقتصادية للنشوء الرأسمالي الأوروبي – اليد العاملة الحرّة والقوانين المعقلنة و الاستقلالية المدنية – توافرت بمجملها في الاجتماع الاسلامي الوسيط دون أن يكتمل رغم ذلك الظهور الرأسمالي [2] .

كما عالج فيبر الاسلام في كتابه (الاقتصاد والمجتمع) معالجة محشوة بالعداء والكراهية ، والاسلام عنده هو دين السادة ، جذوره مسيحية يهودية ، ما كان أبدا دين تقوى واخلاص ، وانّما هو دين محاربين من طبقة اجتماعية معيّنة ، ويعتمد نجاحه على الانتصار العسكري على الأرض ، والغنائم هي المحرّك الأوّل للصحابة الأوائل ، و احتياجات المسلمين كمقاتلين هي التي حدّدت النظرة الاسلامية للعالم ، وكل المسلمين عند ماكس فيبر انتهازيون أخذوا رسالة النّبي وطوّروها لتتطابق مع أحوالهم المعيشية [3] .

---

[1] رضوان السيّد : سياسات الاسلام المعاصر ، جداول للنشر ، لبنان ، ط2 ، فبراير ، 2015 ، ص 279 .

[2] نفسه ، ص 280 .

[3] أحمد ابراهيم خضر : المسلمون الفيبريون ، دت ، ص 52

وبهذا خرج فيبر بفكرة الكاريزما كما حدّدناها سابقا والتي نسبها الى الأنبياء لكن لم يكن النّبي محمّد– صلى الله عليه وسلم – عند فيبر هو النّبي الذي نعرفه ، إنّه في نظره رجل بنى سلطته على السحر ، يدّعي بأنّه يوحى اليه وأنّ القرآن الذي أتى به معجزة وأنّه ينتمي لسلسلة الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، كل ذلك محض ادّعاء عند فيبر بالإضافة الى ذلك فإنّه يعتبر الاسلام دين تزمّت ، وشهوانية جنسية ، وحريم وشعوذة وفوضى حيث عكست كتاباته عن الاسلام مختلف أبعاد هذه الصورة القاتمة [1].

ولقد كانت لآراء ماكس فيبر أتباع ومتأثرون بأفكاره لكن هذا لا ينفي وجود معارضين له حيث أنّ هناك من تبنّى الاسلام دينا وهم شخصيات غربية كانت بروتستانتية الديانة .

نجد مثلا د مُحَمَّد صديق وهو ألماني يبلغ من العمر 33 عاما ، إمام مسجد بلال بمدينة أخين بألمانيا الاتّحادية وكان في الأصل بروتستانتيا قبل إسلامه ، وقد جذبته شخصية الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلم كما جذبته عقيدة الاسلام منذ حداثته لذلك انصرف إلى دراسة الأديان عامة وله من العمر خمسة عشر عاما ويقول عن نفسه : " **قرأت كتبا عن البوذية والهندوسية واليهودية والنّصرانية ، لكن اهتمامي كان موجّها بصفة خاصة للإسلام وشخصية النّبي محمّد صلى الله عليه وسلّم ، ولم أتقبّل التّصوّرات التي كانت سائدة في الغرب حول هذه الشخصية الكريمة** " . ويسعى الامام محمّد م صديق إلى تعريف الألمان بمبادئ الإسلام مؤكّدا على هذه المهمّة التي يتبنّاها المركز الاسلامي لمدينة أخين وغيرها من المراكز الاسلامية في ألمانيا الاتّحادية [2] .

ثانيا / موقف ماكس فيبر من اليهودية:

تعتبر اليهودية ديانة العبرانيين المنحدرين من ابراهيم عليه السّلام و المعروفين بالأسباط من بني اسرائيل الذي أرسل الله اليهم موسى عليه السّلام مؤيّدا بالتوراة ليكون لهم نبيّا واليهودية ديانة يبدو أنّها منسوبة الى يهود الشعب وهذه بدورها قد اختلف في أصلها وقد تكون نسبة الى يهوذا أحد أبناء يعقوب وعمّمت على الشعب على سبيل التغليب [3].

[1] أحمد ابراهيم خضر : المسلمون الفيبريون، ص212

[2] محمّد غزت الطهطاوي : لماذا اختار هؤلاء الاسلام دينا ، مكتبة النافذة ، مصر ، ط1 ، 2005 ، ص 180 .

[3] مانع بن حمّاد الجهني : الموسوعة الميسّرة ، ص 485 .

ويشرح لنا ماكس فيبر في كتابه (اليهودية القديمة) في أيّ شيء كان التمثيل اليهودي لما هو الهي تطوّرا ذا أهمّية حضارية كبرى للتاريخ العالمي ؟ فيقول:" **نجد في اليهودية أخلاق دينية للسلوك الاجتماعي، أخلاق تتّسم بدرجة عالية من العقلانية ، بمعنى أنّها كانت متحرّرة من كلّ سحر كما كانت متحزّرة من كلّ بحث لا عقلاني عن الخلاص التي تميّز أديان الخلاص الآسيوي**" [1]. وبهذا يعترف ماكس فيبر باليهودية على أنّها كانت بعيدة ومتحرّرة عن التفكير اللاهوتي، وأنّها كانت من بين الديانات التي ساهمت في فكرة العقلنة وأنّها تحوّل كل اختيار للإرادة الالهية الى صيغة عقلانية وتوجّهها نحو الإجابة بوسائل عقلانية .

فالنّبي اسحاق مثله مثل المسيح من بعده ، يصف الطابع العقلاني لمسيرة العالم التي لا تتحدّد بالمصادفة العمياء ولا بالقوى السحرية ، انّما تخضع لاعتبارات ومبرّرات ذكية ومن جانب آخر للطبيعة العقلانية للنّبوة ذاتها وعليه فإنّه في نظر فيبر يكون " **التصرّف وفقا لتعاليم الوصايا الالهية وليس التساؤل عن معنى العالم** " هو الذي كان يهمّ اليهود أكثر من أي شيء آخر [2] . وبالتالي فانّ العقلانية التي يتّسم بها اليهود ليست العقلانية التي يدعو اليها ماكس فيبر والتي تتمثل في اعادة التساؤل عن العالم .

ويرى ماكس فيبر أنّ اليهود هم أيضا نموذجيون للرأسمالية السياسية والمالية ولكنّها وقفت الى جانب الرأسمالية " المغامرة " متّجهة نحو السّياسة والمضاربة يقول في ذلك " **بكلمة واحدة ، كانت تقاليدها هي تقاليد الرأسمالية المنبوذة** " [3] ، وبالتالي فانّ العقلانية التي مارستها اليهودية لم تؤد مع ذلك الى عقلنة النّشاط الاقتصادي .

وهذا يعني أنّ الأخلاق الاقتصادية لليهودية ظلّت تقليدية بشكل صارم وقوي تتميّز " بتقدير ساذج وهو أمر غريب على كلّ تقشّف وزهد " وكذلك مفهوم طقوسي من الشّعائر الدينية لإضفاء القداسة والتبجيل على النّصوص.

وعلى هذا سحب ماكس فيبر اليهودية في دراسته من تطوّر الرأسمالية وأعتبر تقاليدها هي تقاليد الرأسمالية المنبوذة متّخذا بذلك نموذجا آخر للدراسة جعله النموذج الأفضل والحقيقي لظهور وتطوّر الرأسمالية، وهذا ما سوف نتطرّق اليه بالتّفصيل في الفصل الثالث.

---

[1] نقلا عن : دانييل هارفييه ، سوسيولوجيا الأديان ، ص 118 .

[2] دانييل هارفييه ، سوسيولوجيا الأديان ، ص 119 .

[3] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 139 .

وبناء على ما سبق يمكن القول أن الديانة البروتستانتية كان لها دور فعّال في تاريخ أروبا ــ حسب فيبرــ حيث ولدت هذه الديانة من حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ، وقد انتشرت هذه الديانة في معظم الدول الأوروبية حيث كانت تعتمد على الانجيل كمصدر لها ولقيمها الأخلاقية وبالتالي فانّ مصدر الأخلاق عندها مستمد من الانجيل ذاته .

كما أنّ ماكس فيبر تعرض بالدراسة الى مختلف ديانات العالم، و كان له موقفا عدائيا لبعض الطوائف الدينية ، حيث اعتبر الاسلام دين زهد لا يحثّ على العمل وأنّه دين تزمّت وشهوانية جنسية وشعوذة وفوضى كما أكّد على أنّ النظام الرأسمالي لم يشهده المجتمع الاسلامي، وبالتّالي فإنّه بعيد كل البعد عن التّطور الاقتصادي بالإضافة الى هذا حدّد ايضا موقفا من اليهودية معتبرا أنّ العمل فيها غير مؤسّس، وأنّ الرأسمالية التي شهدتها هي رأسمالية تتجه نحو المضاربة والسياسة، وأنّ تقاليدها هي تقاليد الرأسمالية المنبوذة وبهذا اختار ماكس فيبر نموذجا دينيا خاصا به في دراسته ألا وهي الدّيانة البروتستانتية، وهذا ما سنوضّحه في الفصل الآتي انطلاقا من التساؤل الذي طرحه ماكس فيبر وهو **إلى أيّ مدى تؤثر التصوّرات الدينية – بالتحديد البروتستانتية – في العالم والوجود و في السلوك الاقتصادي –الرأسمالي – للمجتمعات كافة ؟** لكن برؤية نقدية نتساءل مع فيبر هل موقفه من الاسلام واليهودية موقف مؤسس قبلا أم أنه موقف جاء بعد الدراسة والتحليل؟ هذا ما سنبينه في الفصل الثالث.

الفصل الثالث : التأسيس الأخلاقي للرأسمالية عند ماكس فيبر

خلّف ماكس فيبر زادا علميا هاما و رصيدا معرفيا بارزا ومن بين أهم أعماله كتاب (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث ساهم هذا الكتاب في اثراء رصيده العلمي و الذي كان ذا اهمية كبرى في مساره الفكري و في هذا المؤلف حدّد ماكس فيبر اهم النقاط و المبادئ الاخلاقية التي تتحلى بها الرأسمالية الحديثة حيث ربطها بالديانة البروتستانتية و في هذا الفصل سنقوم بعرض أهم مفاهيم ماكس فيبر في مجال الأخلاق و علاقة هذا الأخير بمجال الاقتصاد – الرأسمالية- بحيث حاول ماكس فيبر أن يوضح كيف يوجه السلوك الديني – البروتستانتية- بقية النشاطات الانسانية وخاصة الاقتصادية و كيف تحدّد مواقف ذو اصول دينية سلوكا أخلاقيا يطبق بدوره في الشؤون الدنيوية حيث تناول فيبر فكرة " أخلاق العمل" موضحا أهمية العمل في مجال الحياة الدنيوية و فوائده الأخروية مع الله، كما يبين كيف ساهمت هذه الأخلاق المستمدّة من البروتستانتية في ظهور نسق اقتصادي جديد وهو روح الرأسمالية حيث اعتبر فيبر أنّ البروتستانتية النسكية – الزاهدة – هي التي تتحلى بأخلاقيات خاصة بالمهنة مع وضع أحد معتنقيها في صلب الموضوع وبيّن كيف ساهمت هذه الأخيرة في ظهور الرأسمالية مبرزا بذلك أهم المبادئ الأخلاقية التي ينبغي أن تتحلّى بها روح الرأسمالية وهذا ما سنتناوله بالتفصيل من خلال عرض أهم أفكار ماكس فيبر في هذا المجال .

المبحث الأول : مفهوم الرأسمالية كمذهب

أولا : تعريف الرأسمالية كمذهب " Capitalism":

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن لفظ الرأسمالية يطلق على النظام الاجتماعي الذي يكون فيه العمال غير مالكين للثروات التي يستثمرونها، ويطلق أيضا على مذهب من يرى أن الفصل بين العمل ورأس المال أصلح وسيلة لزيادة الانتاج، وتحقيق الرخاء والعدل وتوفير الخير والسعادة [1] .

وبهذا تكون الرأسمالية تكوين اجتماعي واقتصادي يحل محل الاقطاع ويستند إلى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واستغلال العمال، ومن ثم فالقانون الرئيسي للإنتاج الرأسمالي و فوضى الانتاج والأزمات الدورية والتناقض الأساسي في هذا النظام يقوم بين الخاصية الاجتماعية للعمل والملكية الخاصة لرأس المال أي بين الطبقتين البروليتارية والبرجوازية [2].

ويعرف رأس المال على أنه مجموعة المصادر أو المال الموجود في وقت معين والذي يمكن الحصول عليه لزيادة معدل الاستهلاك في الفترات المستقبلية سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الانتاج وتوجد ثلاث طرق يستخدم فيها رأس المال في العملية الاقتصادية :

- رأس المال يساعد على الانتاج
- رأس مال يستخدم كوسيلة لتسهيل التحكم في القوة الشرائية
- رأس مال يستخدم كاعتماد مادي للاستثمار [3].

وقد نشأت الرأسمالية في القرن السادس عشر، ولعبت دورا تقدميا في تطوير المجتمع الأوروبي ، فحققت انتاجية عمل أعلى بكثير مقارنة بالاقطاع وحلت محل الاقطاع، وساعدت على نشوء الدول القومية لكن الرأسمالية دخلت في مستهل القرن العشرين أعلى مراحلها والتي تتميز بسيطرة الاحتكارات وتحكم الأقلية المالية، وتعاظم النزعة العسكرية [4].

---

[1] جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج1 ، ص 602 .

[2] مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، دار قباء ، القاهرة ، 2007 ، ص 325.

[3] مجموعة أساتذة : كتابات اجتماعية معاصرة ، تحرير محمّد سعيد فرح ، دار الكتب العربية للنشر ، دت ، ص 207.

[4] توم بوتومور : مدرسة فرانكفورت ، ترجمة سعد هجرس ، دار أويا ، ليبيا ، ط2 ، 2004 ، ص 395 .

ويرى ماكس فيبر في كتابه " الاقتصاد والشركة " أن الرأسمالية وهي بعيدة من السياق العيني لسياسة القوة الامبريالية ومتطورة في نقائها العلمي ذي القيمة الحرة وتكون بذلك الرأسمالية في نظره كشكل للزهد الاقتصادي العقلاني بحيث تعرف للوهلة الأولى على أنّها شكل خاص للدورة المالية والقضية عند ماكس فيبر هي قضية عمل ولا شيء سواه [1] . وهذا ما سنبيّنه لاحقا .

ثانيا / أسس و أشكال الرأسمالية:

1/ ترتكز الرأسمالية الحديثة على مجموعة من الأسس و هي :

– البحث عن الربح بشتى الوسائل إلاّ ما تمنعه الدولة كالمخدرات

– تقديس الملكية الفردية وذلك بفتح الطريق لأن يستغل كل انسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها وعدم الاعتداء عليها وتوفير القوانين اللازمة لنموها واطرادها وعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية إلا بالقدر الذي يتطلبه النظام العام وتوطيد الأمن

– المنافسة والمزاحمة في الأسواق

– نظام حرية الاسعار واطلاق هذه الحرية وفق متطلبات العرض والطلب واعتماد قانون السعر المنخفض في سبيل ترويج البضاعة وبيعها [2] .

2/ **أشكال أو أنواع الرأسمالية التي عرفها العالم الحديث :**

أ– الرأسمالية التجارية : والتي ظهرت في القرن السادس عشر حيث يتمثل جوهر الرأسمالية هنا في استثمار المال بتوقع تحقيق مكاسب وأرباح ويكمن سر تحقيق الأرباح العالية في التمكن من تحقيق الاحتكار بوسيلة أو بأخرى، واخراج المنافسين من السوق والتحكم فيه بكل الوسائل، وحيث أن الأرباح كانت تتحقق من التجارة في سلع نادرة بدلا من ترشيد الانتاج فقد كان تأثير الرأسمالية التجارية على المجتمع محدودا، وكان أغلب سكان أوربا يعيشون حياتهم وينجزون أعمالهم دون أن تؤثر فيهم أنشطة أصحاب رؤوس الأموال من التجار [3] .

[1] هربرت ماركيوز : فلسفات النفي ، ص 216.

[2] مصطفى حسيبة : المعجم الفلسفي ، ص 231.

[3] جيمس فولتشر : مقدّمة قصيرة عن الرأسمالية ، ت رفعت السيّد علي ، دار الشروق ، مصر ، ط1 ، 2011 ، ص 15 .

ب- **الرأسمالية الصناعية** : والتي ساعد ظهورها على تقدم الصناعة وظهور الآلة البخارية التي اخترعها جيمس وات سنة 1770، والمغزل الآلي سنة 1785، مما أدّى إلى قيام الثورة الصناعية في انكلترا خاصة وفي أوربا عامة ابان القرن التاسع عشر، وتفصل بين الانسان وبين الآلة[1] .

[1] مصطفى حسيبة : المعجم الفلسفي ، ص 232.

المبحث الثاني : أخلاق العمل عند ماكس فيبر

أولا / مفهوم أخلاق العمل عند ماكس فيبر :

العمل هو الفعل والمهنة، و الصنعة تقول عمل عملا، فعل فعلا عن قصد والفرق بين العمل والفعل أن العمل أخص والفعل أعم ويشير العمل في علم الاقتصاد إلى كل جهد يبذله الانسان لتحصيل منفعة وبهذا يكون معنى العمل قريب من معنى الفعل، والجهد والتأثير والشغل...[1].

يعتبر العمل في المجتمعات الحديثة فعل يتم بمقتضاه اشباع الرغبة الذاتية الشخصية واستجابة للحوافز المادية، أما في المجتمعات البسيطة فالناس لا يعملون فقط من أجل اشباع هذه الرغبات والحوافز وإنما نزولا على بعض الالتزامات الاجتماعية التي تلزمهم أن يعملوا للآخرين مثلما يعملون لأنفسهم [2] .

ويوضح لنا ماكس فيبر فكرة العمل بقوله أن الكلمة الألمانية Beruf وربما بشكل واضح الكلمة الإنجليزية Calling تعني في نظره مهمة في الحياة أو عمل محدد وأن هذه الكلمة توحي بمدلول ديني بمعنى مهمة مفروضة من الله ويؤكد فيبر على أنّ هذه الكلمة Beruf لا توجد لدى الشعوب التي تنتشر فيها الكاثوليكية وتسيطر بين صفوفها ولدى شعوب العصور القديمة الكلاسيكية بل يوجد مثل هذا التعبير عند كل الشعوب التي تسود فيها البروتستانتية[3] .

يرى ماكس فيبر أن هناك فرق شاسع بين البروتستانتية الألمانية عند لوثر ، والبروتستانتية الفرنسية عند كالفن، والبروتستانتية السويسرية وغيرها ، وفي هذا الصدد يؤكد ماكس فيبر على أن فكرة الشغل Beruf هي من نتاج حركة الاصلاح الديني وأن هذه الحقيقة مسلم بها منذ القرون الوسطى وأن هذه الفكرة هي التعبير عن المعتقد المشترك بين كافة الطوائف البروتستانتية والذي ترفض في الوصايا الأخلاقية عند الكاثوليكية التمييز بين الواجب والمستحب وأنّ تخطي المرء قيم الحياة الدنيا بالتقشف الرهبني – كما هو عند الكاثوليك– ليس هو الوسيلة الوحيدة للعيش بطريقة ترضي الله، بل تكمن الوسيلة في نظر **فيبر** في أن يقوم المرء بواجباته في الحياة بما يتوافق مع موقعه الاجتماعي [4] .

---

[1] جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج2 ، ص 105 .

[2] مجموعة أساتذة : كتابات اجتماعية معاصرة ، ص 208 .

[3] ماكس فيبر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 52 .

[4] نفسه، ص 52 .

وفي هذا يعتقد ماكس فيبر أن مارتن لوثر هو من طور هذه الفكرة – فكرة الشغل– لكنه في نظره فشل فشلا ذريعا في اقامة صلة بين المشاغل الوظيفية والمبادئ الدينية يقول في ذلك : " **غير أنّ لوثر كان يشدد على دلالة العمل الوظيفي كلما انخرط بالأعمال والمشاغل الدينوية ، وهذا ما دفعه إلى مضاعفة تقديره بأن العمـــل الوظيفي هو أمر خاص...هذا يكفي في ذاته لـــكي يحول دون تطور وجهات نظر جديدة في المجال الأخلاقي** " [1].

وفي هذا يسحب ماكس فيبر اسهامات مارتن لوثر في المجال الأخلاقي بالرغم من أنه يعترف له على أنه هو من طوّر فكرة الشغل في ثورته الاصلاحية إلاّ أنها باءت بالفشل لأنه لم يستطع اقامة صلة وثيقة بين المجال الوظيفي –الاقتصادي– والمجال الديني.

ثانيا / أخلاق العمل في البروتستانتية النسكية عند ماكس فيبر

وبعدما سحب ماكس فيبر فكرة مارتن لوثر عن العمل أو الشغل مؤكّدا بأنّها فشلت في ايجاد علاقة بين المجال الأخلاقي والمجال الاقتصادي، وكذلك عندما أقصى كل من الاسلام واليهودية مؤكدا على أن الاسلام دين زهد لا يحث على العمل، وأن العمل في اليهودية غير مؤسس، أقرّ بعد نفيه هذا أن الطائفة البروتستانتية هي الطائفة الوحيدة التي تحث على العمل وبالتالي هي الأقرب إلى الروح الرأسمالية يقول وإذا عدنا إلى الاحصائيات المهنية في بلد تتعايش فيه طوائف دينية متعددة، نلحظ بصورة متواترة ، واقعا أثار في العديد من المرات نقاشات حادة في الصحف والكتابات الأدبية والمؤتمرات الكاثوليكية في ألمانيا، يتلخص هذا الواقع في أن رجال الأعمال وأصحاب الحيازات الرأسمالية وكذلك ممثلي الشرائح العليا المصنفة من اليد العاملة ، وفوق ذلك ، الملاك التقني والتجاري ذا الثقافة الرفيعة في المؤسسات الحديثة هم بأغلبية كبيرة من الطائفة البروتستانتية[2]. ومن خلال هذا النص يتضح حسب ماكس فيبر أن الطائفة البروتستانتية تسيطر على جل القطاعات والمؤسسات الحيوية القوية اقتصاديا وهذا دليل على أنها طائفة تتوفر فيها اليد العاملة بشكل كبير وهي بذلك تكون أقرب إلى الرأسمالية.

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 55 .

[2]-Max Weber : le savant et le politique.p54.

وقد استخدم ماكس فيبر التاريخ ليبين أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية محددة بدرجة قاطعة بالعناصر القيمية في تطورها التاريخي، وفي محاولة لإثبات ذلك الغرض قام فيبر، بملاحظات أساسية تاريخية واحصائية، وقد وجد أن الطبقات التجارية الكبرى للبرجوازية موجودة بكثرة بين البروتستانتيين، فجزء كبير من رجال الصناعة والتجارة ورجال الأعمال والفنيين والمتخصصين من البروتستانت، أما الكاثوليك دائما يميلون إلى الصناعات اليدوية وقد لاحظ فيبر أن بعض هذه الطبقات في القرنين السادس والسابع عشر توجد بكثرة ليس تماما بين البروتستانت ولكن شائعة بين الكنائس البروتستانتية الكالفينية في فرنسا والتجار الهولنديين والمتطهرين في انجلترا .

والى جانب هذا أرجع ماكس فيبر امساك البروتستانتيين في اطار الحياة الاقتصادية المعاصرة بالنصيب الاكبر من المال وبالحصة الأكبر من مراكز الادارة قد يكون ناجما عن ثورة كبيرة انتقلت إليهم بالوراثة [1]. وهذا يعني أن البروتستانتية هي الدين الوحيد الذي يبعث حيوية الفرد ويحثه على العمل .

وفي هذا الصدد يقدم لنا ماكس فيبر بعض العينات التي تؤكد على صحة قوله ويقدم لنا مثالا حول اختيار نوعية التعليم الثانوي مقارنة بين البروتستانت والكاثوليك مؤكّدا أن هذا الاختلاف ينبغي أن يوضع في خانة الفوارق من حيث الأهمية بين الثروات الموروثة يقول في ذلك : "**واقع أن نسبة الطلاب الكاثوليك في المؤسسات التربوية الثانوية أدنى بكثير من نسبة السكان الكاثوليك قياسا على عدد السكان العام، لكنه من غير الممكن أن نفسر بذات الطريقة لماذا كان حملة البكالوريا من الكاثوليك الذين تخرجوا من مؤسسات تحضّر للدراسات التقنية وللوظائف الصناعية والتجارية وغيرها لا يمثلون سوى نسبة متدنية جدا قياسا على نسبة الطلاب البروتستانت بينما تعتبر دراسة الآداب القديمة من قائمة أفضلياتهم ، وبذلك يمكن المقابل أن تؤخذ بعين الاعتبار مشاركة الكاثوليك الضعيفة في مجالات الكسب المستند إلى الرأسمال** "[2] ولتأكيد قوله قدم لنا مجموعة من الاحصاءات البيانية ليدعم بذلك فكرته مقدما بذلك مقارنة بين كل من البروتستانت والكاثوليك واليهود وذلك فيما يخص اختيار نوعية التعليم الثانوي ويقدم لنا الارقام التالية[3] :

[1] Max Weber : le savant et le politique.p65

[2] – ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 17

[3] نفسه ، ص 23 .

نوعية التعليم الطائفة	بروتستانت	كاثوليك	يهود
– الثانوية العامة	%43	%46	%9.5
–الثانوية العلمية	%60	%31	%9
–الثانوية العلمية العليا	%49	%40	%11
– الثانوية الأهلية العليا	%51	%37	%12
المعدل	51	38	10

اضافة إلى هذا يعتقد ماكس فيبر أن كل مجالات الحياة تقع تحت سيطرة يد البروتستانت، ويؤكد ذلك من خلال مقارنته بين البروتستانتية و الكاثوليكية والتي يعتبرها أكثر انفصالا عن العالم، وصاغ بذلك التعارض البارز بين الطائفتين في علاقتهما بالحياة الاقتصادية بالعبارة التالية : " **الكاثوليكي هو أكثر هدوءا، وهو مسكون بعطش قليل جدّا إلى الكسب، ويفضل حياة آمنة، ولو مع مدخول ضئيل جدا، على حياة اثارة ومجازفة ولو وفرنا له الثروات والأمجاد ، تقول الحكمة الشعبية بطرافة : إما أن تأكل جيدا أو أن تنام جيدا، في الحالة الحاضرة يفضل البروتستانتي أن يأكل جيدا بينما يفضل الكاثوليكي أن ينام هادئا**". و بهذا فإن البروتستانتية في نظر فيبر هي الدين الوحيد الذي يهتم بمباهج الحياة ويرى أنه على الفرد أن يعيش باستمتاع واثارة ومجازفة وتحديات وطموحات على عكس ما تتصف به الكاثوليكية كونها منفصلة عن العالم وتدعو الى الكسل والخمول وتتجاهل المنافسة والعمل وتمتاز باللاّمبالاة. وكذلك في مقارنته بين البروتستانتية والكالفينية حيث تعتبر هذه الأخيرة من الطوائف البروتستانتية التي انفصلت عنها سنة 1540 على يد جون كالفن وسميت بالكالفينية نسبة إلى زعيمها جون كالفن وقد أشرنا إلى هذا سابقا .

ويعتقد ماكس فيبر أن الكالفينية هذه وجدت لتعظيم الرب يؤكد فيبر ذلك قائلا : " **إن نشاط الكالفينية الاجتماعي يدور فقط حول تعظيم الله وتبجيله من هنا فإن النشاطية الوظيفية التي هي في خدمة الحياة الدنيوية للجماعة، هي بالتالي من هذه الطبيعة ايضا**"[1]. وبهذا تكون الكالفينية في نظره وجدت من أجل تعظيم الرب لا غير، وأنه على الإنسان أن يعيش حياة اجتماعية روحانية ربانية خالصة فيصبح هذا الاندماج

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 73 .

للحياة الدينية بالحياة الاجتماعية ملبيا للحياة البشرية ومعبرا عن قيمة العمل المعروف كفعل لتمجيد الرب وتعظيمه لا لتحقيق مكاسب شخصية.

وإلى جانب هذا يعتقد ماكس فيبر بأن الكالفينية صورة مثالية حيث تنظر إلى العلاقة بين الفرد والأخلاق على أنّها علاقة بدون صراع بينما عند فيبر العكس من ذلك ، وبهذا يستنتج ماكس فيبر وجود فروق في النشاط الاقتصادي وفي الثراء، وفي طرائق العمل بين البروتستانت والكاثوليك في أوربا الغربية وأمريكا ثم بين البروتستانت أنفسهم بين اللوثرية والكالفينية.

وقد تناول ماكس فيبر فكرة أخلاق العمل وذلك عند البروتستانتية النسكية –الزاهدة– وميز لنا بين أربعة تيارات رئيسية للبروتستانتية النسكية وهي :

-الكالفينية Le calvinisme

- التقوية Le pietisme

- الميتودية Le méthodisme

-المعمدانية Baptisme

كانت هذه الفروع ذات علاقة طبعا أحدها بالآخر ولا يمكن الفصل بينها دائما بصورة واضحة ولا تعنى معالجة فيبر للمذهب البروتستانتي الزهدي بوصف تاريخي شامل لمعتقداتهم لكن بتلك العناصر فقط في معتقداتهم التي لها أعظم التأثير في سلوك الفرد العملي في نشاطه الاقتصادي[1] .

وتوصل ماكس فيبر من خلال عرضه لأهم أفكار هذه الطوائف وهو يحاول أن يبين القواعد الدينية التي تقوم على الفكرة الطهرية عن العمل – المهنة – ويرى بأنه رغم الاختلافات التفصيلية والتنوع الذي تبديه هذه الحركات النسكية بأشكال شتى فإن هذه الوجوه هي ذات حضور وتأثير فيها، ويرى بذلك أنها تتركز على مفهوم الخلاص أو النعمة الإلهية وهو مفهوم مشترك بين كل هذه الطوائف.

وبهذا يرى ماكس فيبر بأن الانسان مدفوع إلى أن يراقب بشكل منهجي خلاصه الفردي في سلوكه الخاص الذي ينبغي اشباعه بالنسكية، ويعني مثل هذا السلوك النسكي اعطاء الوجود كله شكلا عقلانيا يعزى إلى ارادة

[1] أنتوني جيدنز : الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة ، ص 96 .

الله مؤكّدا أن هذه النسكية انتشرت على صعيد السوق وتعمل على اشباع روتين الوجود بطريقتها ومنهجها صانعة من ذلك حياة عقلانية في هذا العالم الدنيوي وليس أبدا من أجل هذا العالم [1].

ولكن من خلال عرضه لأفكار كل هذه الطوائف انصب أهم جزء من تحليله على الكالفينية لكن ليس على مذاهب كالفن فقط كما نفهم في العادة. بل بدلا من ذلك على تلك المذاهب المجسدة في تعاليم أنصار الكالفينية نحو نهاية القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر ويؤكد فيبر ذلك بقوله : " **نقول عمدا إن آراء كالفن الشخصية ليست هي التي سندرسها بل الكالفينية في شكلها الذي ظهرت فيه حوالي نهاية القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر على امتداد الأراضي التي كانت سائدة فيها والتي كانت مسرحا لأكثر أشكال الثقافة الرأسمالية تطورا** " [2] . وبهذا يحدد ماكس فيبر الطائفة الكالفينية السائدة في فترة القرن السابع عشر كأحد أهم الطوائف التي ساهمت في ظهور الرأسمالية .

وقد تبيّن له أن ثمة تطابقا بين العقلية البروتستانتية في انجلترا والولايات المتحدة وغيرهما ولا سيما لدى المتزمّتين البروتستانت المعروفين بـ البيوريتان Puritans وبين الاتجاه العام نحو الحياة ذلك الاتجاه الذي يحث على العمل بنشاط وحيوية فالبروتستانتية حسب فيبر في شقّها الكالفيني بصفة خاصة، هي مجموعة من الحوافز التي تدفع الانسان إلى العمل والانتاج وتحصيل الثروة والاسهام في زيادة ازدهار الحياة الاقتصادية بل إنها تمنح المهنة قيمة أخلاقية كبرى وتقدس العمل إلى درجة أنها ترى في تأدية العمل بأمانة وحيوية وحماسة واجبا مقدسا، فمبدأ العمل لدى بنيامين فرانكلين ليس معناه حب المال، أو حب الكسب، أو حب الحياة الثرية، بل هو صيغة مبدئية أخلاقية لطرائق العيش المثلي، وهذا المبدأ الكالفيني لا يرى في العمل وسيلة للكسب من أجل العيش، بل إن العمل ذاته هو فلسفة الحياة ومعناها [3].

وبهذا يؤكد لنا فيبر بأن الطهرية الإنجليزية المتحدرة من الكالفينية توفر لنا الأساس المنطقي لمفهوم الشغل ومن أجل هذا وضع أحد ممثليها المسؤولين في صلب نقاشه وهو ريشارد باكستر"Richard Baxter " "1921-1980م" واستعرض في ذلك أهم كتبه حول الثروة وطريقة الحصول عليها يقول في ذلك : " **فالثروة بما**

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 96 .
[2] نفسه ، ص 99 .
[3] رضوان السيّد : سياسات الاسلام المعاصر ، ص 273.

هي ثروة، تشكل خطرا فادحا، وإغواءاتها لاحد لها ، والبحث عنها عمل جنوني نظرا للأهمية القصوى التي ترتديها مملكة الله، ولكنها قبل كل شيء موضع شك من الناحية الاخلاقية " [1]

وبهذا يحذر **باكستر** من اغراءات الثروة، لكن هذا التحذير في نظر فيبر موجه فقط إلى استخدام الثروة في سبيل طريقة الحياة يغلب عليها الرخاء والبطالة حيث أن البطالة وتضييع الوقت هما في مقدمة الآثام، وبالتالي يعزى بذلك أعلى تقدير أخلاقي إيجابي للعمل في العالم المادي بالنسبة للمؤمن بالكالفينية ولا يزوّد امتلاك الثروات الانسان بأي إعفاء من الامر الالهي بالعمل بصورة مخلصة في مهنتة.

وبهذا ترتبط هذه الأخلاق الطهرية بالعمل ارتباطا وثيقا وهذا يعد دليلا قاطعا على أن الشخص الناجح في عمله هو من بين الناس الذين اختارهم الرب وارشدهم إلى طريق الخلاص يقول فيبر : "**فينبغي على الانسان بغية تأمين خلاصه أن يقوم بعمل الرب الذي بعث به إلى الأرض طيلة ما يدوم النهار، لا البطالة ولا المتعة بل النشاط وحده هو الذي يخدم زيادة مجد الله، تبعا لتجليات ارادته الواضحة** " [2]، وبالتالي فإن هذه الطائفة في نظر فيبر تعمل على تشجيع الادّخار والاستثمار، بل إن أتباعها يقدسون العمل ويحترمون أرباب العمل بالإضافة إلى فرضها الواجبات والقواعد التي تنظم السلوك الاقتصادي، ونبذها الخمول والتكاسل والتواكل، وحثها على الحركة والنشاط من أجل العمل والكسب باعتبار العمل سبيلا لتحقيق الخلاص الفردي .

بالإضافة إلى هذا يعتبر ماكس فيبر من خلال ما كتبه باكستر أن العمل هو بمثابة وسيلة نسكية يقول في ذلك : " **العمل هو بشكل خاص ، الدواء النوعي الذي ينبغي استخدامه من باب الوقاية ضد كل الاغواءات التي جمعتها الطهرية في عبارة الحياة الفاسدة التي لا يستهان بدورها** " [3]. وبهذا تكون الطائفة البروتستانتية الطهرية بأخلاقها وقيمها تعمل على تشجيع العمل بل وتقدسه وهي تجعل من العمل الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يستطيع الفرد التخلص من الاغواءات التي يصادفها في الحياة الدنيا كالتكاسل والتواكل وذلك من خلال الأخلاق التي تحددها الطائفة البروتستانتية وكذلك تعتبر العمل وسيلة تعبّد وتقرّب إلى الله .

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية ، ص 134.
[2] نفسه ، ص 135 .
[3] نفسه ، ص 135 .

ويضيف ماكس فيبر مسالة أخرى عن العمل ذات أهمية في حياة الفرد يقول في ذلك : " **غالبا ما يشكل العمل هدف الحياة ذاته** " [1]، وفي هذا الصدد يؤكد فيبر أنه لم يكن من الطبيعي بالنسبة للإنسان أن يكرس نفسه روحا وجسدا لنشاط مهني منتج بل يفضّل بالأحرى أن يعيش حسب عادته وأن يكسب الكثير من المال الضروري لتحقيق ذلك حتى يقضي على الروتين وأن ينخرط بحماس في العمل باعتباره هدفا في حد ذاته ولكي يدرك العمل في نظر فيبر كدعوة وشعور باطني لا بد من وجود قوّة دافعة خاصة يضعها فيبر في العقلية الدينية الخاصة بالبروتستانتية النسكية الكالفينية بصفة خاصة.

ويدلل ماكس فيبر بآية القديس بولس والتي سبق ذكرها والتي تنص على ما يلي: " إذا لم يرغب أحدكم بأن يعمل فليكف عن الأكل أيضا " ويؤكد على أن هذه المقولة صالحة لكل إنسان من غير تحفظ، ويؤكد أن الامتناع عن العمل هو مؤشر عن غياب النعمة .

وبهذا نجد في الأخلاق الكالفينية أن الانسان يبرز ككائن عامل، ومن هنا اعادة الاعتبار لمفهوم بقي محتقرا زمنا طويلا وهو العمل وتؤكد جاكلين روس أنه مع الاخلاق البروتستانتية وخصوصا الكالفينية برزت فكرة العمل وما تنطوي عليه من غنى وبذلك تبرز فكرة العمل الانساني الهادف إلى اكثار ثمار الأرض وأن كره العمل من وجهة النظر الكالفينية دلالة على غياب النعمة وأنها تعطي النجاح الزمني الدليل على اختيار الله كلي القدرة بالأسرار والذي هيأ بعضا منّا للخلاص [2].

ويؤكد ماكس فيبر على ضرورة انجاز العمل بشكل منظم ويستدل في ذلك بقول باكستر: " **لا يمكن للمرء أن يمضي بمهمته إلى نهاية ناجحة خارج مهنة مضمونة جديا، لأن عمله يغدو غير ثابت وغير منتظم ويمضي فيه من الوقت على الكسل أكثر منه على الكد** " . ونستنتج من هذا أن العامل المتخصّص ينجز عمله في انتظام في حين يظل غيره في تشوش أبدي ، ولا يعرف من اجل كسب عيشه لا راحة ولا استقرارا، وبهذا يؤكد فيبر على ضرورة التخصص في العمل ، وعلى الإنسان الالتزام بآداء عمله بطريقة منتظمة أيا كان ذلك العمل .

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 136 .

[2] جاكلين روس : مغامرة الفكر الأروبي ، ت أمل ديبو ، أبو ظبي ، ط1 ، نوفمبر ، 2011 ، ص 119 .

كما يقر بفكرة مهمة مفادها أن الحياة المهنية ينبغي أن تشكل بالنسبة إلى الفرد تمرينا على فضيلة التقشف، واختبارا من خلال دور الضمير في المهنة، للخلاص الذي يفعل فعله في العناية النشيطة والمنهج اللذين يتفرع بهما الفرد لعمله ما يأمر به الله ليس العمل بذاته بل العمل العقلاني داخل المهنة. وبالتالي يجري التشديد في نظر فيبر دوما في التصور الطهري على الطبيعة المنهجية في النسكية الدنيوية وليس كما هو الحال عند لوثر الذي بين أنه على الإنسان القبول بالنصيب الذي قطعه الله لكل واحد بشكل نهائي [1]. وتنص هذه الفقرة على انّه أينما ينطلق الانسان ويعمل فإنه يخلق الاحتياطات النقدية كوسيلة لعمله وليس العكس وفي أصل هذا السلوك العقلاني الذي يمثل في الإيمان بأن واجبه الأكبر على هذه الأرض هو أن يعمل بلا هوادة بزهد وعقلانية.

ويخلص ماكس فيبر إلى أنّ النسكية البروتستانتية التي تمارس تأثيرا في الحياة الدنيا بأنها تتعارض تعارضا حادا مع التمتع العفوي بالثروات وتكبح الاستهلاك، لا سيما في مجال الأشياء الكمالية وفي المقابل يكمن مفعولها البسيكولوجي في تخليص الرغبة بالكسب من كوابت الأخلاق التقليدية كما أنها تقطع السلاسل التي تعيق مثل هذا الميل إلى الكسب لا بتشريع هذا الميل فحسب، ولكن أيضا بالنظر اليه كما يريده الله، ويؤكد فيبر على أن الصراع ضد اغواءات الجسد والتبعية للثروات الخارجية لا يستهدف أبدا الكسب العقلاني بل استخدام الأملاك استخداما عقلانيا[2]. وبهذا لا ينكر ماكس فيبر العمل من أجل الكسب الجيد و بلوغ الثروة وإنما يؤكد على ضرورة التحلي بالأخلاق التي تسمح بالتمتع بهذه الثروة في اطار ما يريده الله وبهذا يؤكد على عدم التبذير وطغيان المادة على الجانب الأخلاقي وبالتالي يدعو إلى استخدام الأملاك استخداما عقلانيا لغايات ضرورية ونافعة.

ويؤكد ماكس فيبر على ذلك، وهذا ما يظهر في قوله : " **إن الاستخدام العقلاني النفعي للثروات هو ما أراده الله من أجل حاجات الفرد والجماعة، ليس التقشف هو ما ينبغي فرضه على الملاكين بل استخدام ثرواتهم لغايات ضرورية ونافعة** " [3]. نستنتج من هذا أن ماكس فيبر يؤكد بأن البروتستانتية النسكية تشجع العمل، وتحث أيضا على الزهد والتقشف –كما أكدنا سابقا – لكن هنا لا يعنى القــول بفكرة التقشف و الزهد

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 137 .

[2] نفسه، ص 142 .

[2]-Max Weber : le savant et le politique.p78

السلبيين، بمعنى اعتزال العالم ، والفرار من الحياة والتفرّغ لعبادة الله فقط كما يفعل الكسالى، وإنما يدعو فيبر إلى العمل الدؤوب والمثابرة والنجاح في الحياة المهنية ، وهو بهذا يؤكد على ضرورة استثمار الملاك للأموال واستخدام أموالهم من أجل تحقيق غايات ومنافع للناس وتحقيق الرفاهية بشكل مميز في مجال الاستهلاك المسموح به أخلاقيا.

وكلما عمل المرء بنظر فيبر بنشاط أكثر وحيوية اكبر كان ذلك له من علامات رضى الله عنه كما عليه في الآن عينه ألا يقتطع من المال الذي يجنيه من عمله الدؤوب إلا ما هو ضروري لأن يعيش عيشة راضية يقول ماكس فيبر في ذلك اقرا ان شئت قول بعض الطهريين البروتستانت : " **إننا لا نعمل فقط لكي نعيش، بل إننا نعيش لأجل حب العمل...إن بليدا أو متكاسلا لا يمكن أن يكون مسيحيا ولا أن يحظى بالخلاص... إن من شأن الثراء أن يعفيك من بعض الاعمال الفذة ... غير أنه لا يعفيك من العمل والخدمة مثل أفقر الناس**"[1]. و هكذا يكون العمل في نظر فيبر من بين الأمور المهمة التي توصل إلى الخلاص مع الرب.

ويؤكد فيبر بأن النسكية هنا تقاتل على ارضية انتاج الثروات الخاصة ، عدم الاستقامة والطمح الغريزي وتدين تعقب الثروة لذاتها باعتبار ذلك طمعا وعبادة للذهب....الخ، لأن الثروة لذاتها هي اغواء يقول في ذلك : " **ان النسكية هي القوة التي تريد الخير دوما ولا تصنع سوى الشر، هذا الشر المتمثل بالنسبة لها بالثروة وإغواءاتها ... وترى النسكية أن ذروة الكراهية هي في تعقب الثروة باعتبارها غاية في ذاتها، وتعتبر في الوقت نفسه بمثابة الدليل على البركة الربانية، الثروة كثمرة للعمل المهني** " ، ويضيف قائلا " **والأهم من ذلك أيضا أن التقويم الديني الذي يتناول عملا متواصلا ، لا يتوقف منهجيا، بل يتم في اطار مهنة دنيوية ، بصفته الوسيلة النسكية الأرقى، وفي الوقت ذاته بصفة أكثر الأدلة تأكيدا وبديهية على التجدد والإيمان الاصلي أمكن لهذا التقويم أن يشكل الرافعة الأكثر فعالية ، التي يمكن تصورها، والأكثر قدرة على نشر هذا التصور عن الحياة، التصور الذي أسميناه هنا روح الرأسمالية** "[2] ، وبهذا يعتقد ماكس فيبر بأن العمل وسيلة نسكية راقية ويعمل على تجديد الإيمان وتثبيته ولكن بارتباطه بالتقويم الديني – البروتستانتية – ويرى بأن البروتستانتية النسكية هي القادرة على نشر التصور الذي يسميه ماكس فيبر بروح الرأسمالية.

فما المقصود بروح الرأسمالية عند ماكس فيبر؟ وما هي الدعائم والقواعد التي تقوم عليها؟ وهذا ما سنوضحه في المبحث القادم.

---

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 154 .

[2] نفسه ، ص 143.

المبحث الثالث : روح الرأسمالية والمبادئ الأخلاقية عند ماكس فيبر

أوّلا / مفهوم روح الرأسمالية:

ربما لعبت الجوانب الفكرية دورا مميزا في نمو الرأسمالية وتطورها في أوربا، فالأفكار والمعتقدات الدينية تدفع الناس إلى توجهات محددة، وتضفي على أفعالهم معنى، وتنظم سلوكياتهم من خلال منظومة قيم تحدد لهم كيف عليهم أن يعيشوا، وما هو مسموح لهم بفعله، ولا يوجد شك أنّ المؤسسات الدينية القوية اخترقت كل نواحي حياة البشر في أوربا خلال القرون الوسطى والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو **هل هناك علاقة بين المسيحية ونمو الرأسمالية وتطورها** ؟ ، ولقد كانت أفضل علاقة معروفة تجيب عن هذا التساؤل هي العلاقة التي وضعها ماكس فيبر بين الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. وهذا ما سنوضحه من خلال عرضنا لأهم أفكار ماكس فيبر عن ظهور الرأسمالية وتبيان المبادئ الأخلاقية التي تقوم عليها.

يؤكد ماكس فيبر أن الرأسمالية لا تتعلق بالرغبة في الكسب، ولا بالبحث عن الربح ولا بالسعي الحثيث وراء جمع المال، ذلك أن رواد الملاهي والأطباء والفنانين، والجنود واللصوص والاسكافيين كل هؤلاء من منظور فيبر قد يكونون مسكونين بهذه الرغبة الجموحة، أو بهذا التعطش الكبير للكسب، بل إن حمّى الكسب وحب الذهب لدى اسكافي من نابولي قد تكون أكثر قوة بكثير ممّا هي لدى انجليزي بروتستانتي يعيش في ظروف مشابهة فالحاجة للكسب غير المحدود لا تنطوي أبدا على مقومات الرأسمالية ولا حتى على روحها [1].

وبهذا يعتبر ماكس فيبر الرأسمالية بأنّها ظاهرة حديثة أو هي نسق معقد للغاية يضم مجموعة من النظم ذات طبيعة عقلانية، ثم هي نتاج العديد من التطورات التي وقعت في اطار الحضارة الغربية، وبهذا المعنى يتأكد التفرد من ناحية أخرى أن هذا النظام لم يظهر تلقائيا في اطار حضارات الشرق، ومن هنا فإن النظام الرأسمالي ليس قديما في التاريخ، ومن ثم فليس علينا أن نخلط بينه وبين أشكال النشاط الرأسمالي العديدة (كالرأسمالية التجارية والسياسية) التي عرفت في الفترات السابقة من التاريخ الغربي.

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الراسمالية ، ص 7 و31.

وعلى هذا يؤكد ماكس فيبر أن الرأسمالية لم تشهد إلا في الغرب انتشارها الكبير وأنماطها وأشكالها وميولها التي لم تبرز في أي مكان آخر [1]. وبهذا تكون الرأسمالية في نظره ظاهرة غربية محضة وحديثة في نفس الوقت .

كما انّه بالرغم من تواجد أشكال الرأسمالية في كل من الصين والهند وبابل في الزمن الغابر والقرون الوسطى إلاّ أنه لم يهتم بها، لأنها لا تملك الأخلاق التي ينبغي أن تتحلى بها وهذا ما سنوضحه لاحقا بل كان اهتمامه منصبا عن الرأسمالية كما هي في أوربا الغربية وفي أمريكا .

ويمكن أن نلخص مفهوم الرأسمالية في نظر ماكس فيبر بقوله " **الرأسمالية مرادفة للبحث عن الربح ، عن ربح دائم القدرة على التجدد من خلال مؤسسة ثابتة ، عقلانية ورأسمالية انّها البحث عن المردودية التي تلازم المشروع الرأسمالي...إذا تم البحث عن الكسب الرأسمالي عقلانيا فإن الفعل المقابل يحسب على أساس الرأسمال هذا يعني أنه إذا استخدم الفعل منهجيا المواد أو الخدمات الشخصية كوسيلة للكسب فإن حصيلة المشروع بالأرقام المالية في نهاية مرحلة معينة منه... ينبغي أن تتجاوز الرأسمال، أي قيمة وسائل الانتاج المادية المستخدمة في سبيل الكسب عن طريق التبادل** "[2] . وبهذا تكون المحاسبة الخاصة برأس المال في نظر فيبر هي تقييم وعد فرص الربح، وهي تتقدم عن طريق مقارنة القيم المالية المناظرة للموجودات (الثابتة والسائلة)، الكلية في بداية ونهاية مشروع واحد يستهدف الربح أو في حالة مشروع يفرز ربحا باستمرار والقضية عند ماكس فيبر هنا هي العمل ولا شيء سواه ويكون العمل وفق طرق عقلانية.

ويرى ماكس فيبر بأن الشكل الحديث وبالمعنى الصحيح للرأسمالية قد تحدد إلى درجة كبيرة بتطور الامكانات التقنية كما ترتبط عقلانية اليوم بشكل أساسي بإمكانية تقدير العوامل التقنية الأكثر أهمية، مما يعني أنها ترتبط بالسمات الخاصة بالعلم الحديث، لا سيما بعلوم الطبيعة القائمة على أساس الرياضيات والتجريب العقلاني، وهو يؤكد بذلك أن المصالح الرأسمالية لم تحدد ولادة الرياضيات أو علم الميكانيكا وإنّما أراد القول بأن استخدام المعرفة العلمية استخداما تقنيا قد تلقىّ في الغرب دفعا إلى الأمام بفعل الإيجابيات والمنافع الاقتصادية التي وفّرها على أن هذه المنافع المهمة جدا على صعيد ظروف السكان المعيشية هي من ثمار البيئة الاجتماعية

[1] Max Weber : économie et société.p361

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص8

الخاصة بالغرب [1] ، وكأنّه هنا يصبو إلى إقامة علاقة بين الرأسمالية الغربية وبين العلم الحديث وأن يجعل من الظاهرة الرأسمالية ظاهرة غربية محضة ، وأن الغرب هو الذي شهد التطور المذهل في جميع المجالات .

ويضيف أيضا أن الغرب، في الأزمنة الحديثة قد شهد شكلا معينا من الرأسمالية، وهو التنظيم العقلاني الرأسمالي للعمل الحر يقول في ذلك : " **غير أن الغرب في الأزمنة الحديثة شهد وحده شكلا آخر من الرأسمالية هو التنظيم العقلاني الرأسمالي للعمل الحر (شكليا)، وهو ما لا نجده في أماكن أخرى إلاّ على شكل بدايات مشوشة... فلم يكن ذلك ممكنا من دون عاملين أساسيين هما : فصل العمل المنزلي عن المؤسسة ، وهو الذي ساد في الحياة الاقتصادية الحديثة والمحاسبة العقلانية وهي مرتبطة به ارتباطا وثيقا** "[2].

فإذا كانت توجد أشكال مختلفة من الرأسمالية فإن الرأسمالية في الغرب فقط كما يعتقد فيبر قد أدت إلى ميلاد إنسان من نوع خاص، يعرف برجل الاعمال البرجوازي بعلاقة معينة مع العمل وبعقلانية نشاطه الاقتصادي وفي الواقع ليس البحث عن الربح هو الذي يميز الرأسمالية الغربية، إنما عدد معين من الاتجاهات – "السلوكيات" – وهو التنظيم العقلاني الحر تحديدا كفصل الإدارة المنزلية عن المؤسسة الاقتصادية ادخال المحاسبة العقلانية وبهذا فإن المسألة المركـــــزية عند فيبر هي مسألة ظهور البرجوازية الغربية، بزوغ انسان من نوع خاص " Le berufsmenscentum " أي نمط الانسان الذي يعترف بمهنته المهمة كقدر أو مصير، نمط الانسان الذي يحقق ذاته من خلال العمل ويعتبر العمل كشيء كهنوتي مقدس.

ويؤكد ماكس فيبر في هذا الصدد أن القضية الأساسية في تاريخ الحضارة الشامل ليس تطور النشاط الرأسمالي، كنشاط رأسمالي مختلف باختلاف الحضارات وإنما تطور رأسمالية المؤسسة البرجوازية مع التنظيم العقلاني للعمل الحر يقول في ذلك : " **وبلغة تاريخ الحضارات، فإن قضيّتنا هي قضية ولادة الطبقة البرجوازية الغربية بسماتها المميزة ، وهي قضية على علاقة أكيدة ووثيقة ، بأصل تنظيم العمل الحر الرأسمالي، ولكنها ليست مماثلة له، ذلك أن البرجوازية كدولة قد وجدت قبل تطور الشكل الحديث الذي يخص الرأسمالية وهذا يصح على الغرب وحده**" [3].

[1] Max Weber : économie et société.p56

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 11

[3] نفسه ،ص 10.

ولقد ارتبطت الرأسمالية أيضا في نظر ماكس فيبر بما يسمى بـ " التتجير" بمعنى تحويل كل شيء إلى مادة للتجارة وتطور الملكيات القابلة للتبادل والبورصة التي هي عقلنة المضاربة، والمطلوب هنا عند ماكس فيبر هو فهمه في اطار التنظيم العقلاني للعمل الرأسمالي فيعتبر بذلك أن الحساب الدقيق والعقلاني هو الأساس ولكن يجب أن يكون ذلك مرتبطا أو قائما على قاعدة العمل الحر، وهذا لا نجده في نظر فيبر إلاّ مع الرأسمالية الغربية الحديثة دون سواها [1].

وبهذا تكون الرأسمالية في نظر فيبر هي السيادة عن طريق التنظير العقلي، إنها البحث عن الفائدة المتجددة باستمرار في مؤسسة دائمة قائمة على التنظير العقلي، إنها البحث عن العائد Rentabilité وهو المحرك الاساسي لها.

ولقد اهتم ماكس فيبر من خلال دراسته لتطور الرأسمالية وذلك بإقامته للحجة على أن الأخلاق الدينية البروتستانتية هي التي أثرت أيما تأثير في الاقتصاد أي الرأسمالية الغربية الحديثة، والسؤال المحوري الذي انطلق منه فيبر هو **إلى أي مدى تؤثر التصورات الدينية على السلوك الاقتصادي–الرأسمالية– للمجتمعات كافة؟**

وفي هذا المجال أكد ماكس فيبر أن الرأسمالية غدت راسخة ومتمكنة من نفسها بحيث أصبح تجنيد اليد العاملة سهلا نسبيا، في كافة البلدان الصناعية ولكنها عاجزة عن بلوغ هدفها من غير اللجوء إلى حليف قويّ ويجعل فيبر هذا الحليف مجسّدا في التربية الدينية التي تساهم في اعداد أفضل الشروط لتربية اقتصادية يقول في هذا "**إن القدرة على تركيز الفكر واعتبار العمل واجبا أخلاقيا هما أمران متلازمان بسهولة ومقترنان بذهنية اقتصادية تحسن حساب إمكانية الكسب الأكثر ارتفاعا، مع قدرة السيطرة على الذات وصبر من شأنهما رفع نسبة المردود بشكل ملحوظ ، إنها التربية الأكثر استعدادا لتقبل هذا التصور عن العمل بصفته غاية في ذاته، استجابة لدعوة داخلية وهذا ما تتطلبه الرأسمالية . تضاعف التربية الدينية من فرص تخطي الروتين التقليدي وتبين هذه الملاحظة الراهنة للرأسمالية أن سؤالا يستحق أن يطرح : كيف أمكن من الأصل قيام هذا الربط بين التكيف مع الرأسمالية وبين العوامل الدينية؟**"[2]. ويستخلص ماكس فيبر بعد طرحه لهذا السؤال

[1] Max Weber : le savant et le politique.p35

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 10

العديد من الوقائع، من قبيل أن هذا الربط كان موجودا وفي صيغة مماثلة ذلك أن النفور و الاضطهاد اللّذين تعرض لهما ووقع ضحيتها أصحاب الاتجاه المنهجي ناجم وبشكل أساسي عن الخضوع لعملية انحراف عن المفاهيم الدينية.

وبهذا تكون التربية الدينية عند ماكس فيبر هي أفضل وسيلة للتربية الاقتصادية اذ يصبح العمل الزاما خلقيا ويزيد الانتاج ويتم اخراجه من العمل الروتيني التقليدي، ويستغل فيبر هذا المعنى المزدوج أحسن استغلال لجعل العمل رسالة والرسالة عمل ويأخذ فيبر الفكرة الدينية ويحولها إلى فكرة اقتصادية محضة لإعطاء الرأسمالية دفعة روحية جديدة بالاتجاه إلى الدين [1].

والنظرية السوسيولوجية التي وضعها ماكس فيبر في كتابه (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) وذلك من خلال دراسته لتطور الرأسمالية بدأت من هذا السؤال: **هل القيم الدينية للإصلاح البروتستانتي خاصة الاتجاه الكالفيني لها تأثير مباشر على تطور الرأسمالية الحديثة؟**

ويعتبر فيبر أنّ الكالفينية هي التي ساهمت في ظهور وتطوير النظام الرأسمالي حيث يؤكد ذلك بقوله : " **الكلفانية في البلاد المنخفضة (هولندا) تثير روح المشاريع وهذا يتوافق تماما مع الرأي الذي عبّر عنه وليم بيتي" W.petty " في نقاشه أسباب انطلاقة الرأسمالية في البلاد المنخفضة وفي هذا ينقل عن غوتان " Gothein " وصفه الشتات الكالفيني في فرنسا وهولندا بأنه منجم الاقتصاد الرأسمالي"** [2]. وبهذا المعنى يؤكد ماكس فيبر أن الكالفينية هي الطائفة التي خضعت للإصلاح أكثر من غيرها هي الوحيدة التي أدت إلى تطور روح الرأسمالية ويفضل ماكس فيبر الحديث عما يسميه روح الرأسمالية.

واهتمام فيبر الاساسي ليس تطور النشاط الرأسمالي في مختلف الثقافات ولكن كما قلنا سابقا يبحث عن أصل البرجوازية الرأسمالية الرشيدة، مع تنظيمها العقلاني للعمل الحر، فمهمّة فيبر إذن كانت في البحث عن أصل أو مصدر هذه الروح، ويذهب إلى أنّ هذه الروح قد ظهرت كمحصلة أو كنتاج للأخلاق الكالفينية، ويعد هذا الفرض تحدّيا لنظرية ماركس القائلة بأن العوامل الاقتصادية تحدد الشكل الذي تكتسبه الظواهر، فالعوامل الاقتصادية في نظره ما هي إلاّ نتاجا للرّوح الدينية مثل المتطهرين.

[1] حسن حنفي ، في الفكر الغربي المعاصر ، ص 234 .

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 20.

و بهذا يؤكد ماكس فيبر على العلاقة الموجودة بين الرأسمالية وبين البروتستانتية يقول في ذلك " **إن المدن وهي مقر البرجوازية ومركز نشاطها الاقتصادي العقلاني هي بامتياز مقر الفضائل النسكية** " [1]، وبهذا فإنّه يوثق الصلة بين البروتستانتية وبالتحديد أخلاقها وهي عقلانية في نظره بالرأسمالية التي تتسم ايضا بالطابع العقلاني .

وبالتالي فإن فيبر يرى أن الرأسمالية لم تظهر كنتيجة لضرورة اقتصادية داخلية كما رأى ماركس ، بل ظهرت عن طريق الدفع الذي مارسته قوة خارجية هي الاخلاق الدينية المتمثلة في البروتستانتية النسكية وبالتحديد الكالفينية حيث أن هذه الأخيرة ابرزت قيمة المبادرة الفردية والتقشّف والعقلانية في السّلوك أي أبرزت الأفعال الرشيدة المتجه إلى الانتاج والعمل والتأثير الواقعي في العالم وادانة تكدس الأموال والبذخ المسرف وهذه الأفعال تتصف بالعقلانية والتنظيم في مختلف مجالات الحياة وهذه العقلانية تتجسد في مؤسسات الرأسمالية التي تؤكد على الانتظام وباختصار يرى فيبر أن هناك اتفاقا كبيرا بين غايات كل من السلوك الديني والعلماني بحيث يمكن القول أن نشأة التوجيه الأخلاقي الكالفيني كان شرطا ضروريا ان لم يكن كافيا لظهور الرأسمالية الحديثة بمعنى أن غايات الفعل في الأخلاق الكالفينية توجه المؤمنين الى اتباع سلوك يتفق مع الروح الرأسمالية الحديثة[2] .

وبهذا يرى ماكس فيبر أن الأخلاق البروتستانتية " **تفرض على المؤمن أن يتّخذ سلوك الزهد فيما يتعلق بالخيرات المادية بيد أنّ العمل بصورة عقلانية من أجل الربح وعدم انفاقه هو سلوك ضروري لتطور الرأسمالية** " [3] . وبالتالي فإن الرأسمالي يدخّر الجزء الأكبر من الأرباح قصد استثماره واعادة تشغيله من جديد من أجل تحقيق ربح أكبر وأفضل والبروتستانتي يدخر ماله قصد التنسك من أجل سعيه إلى الخلاص وذلك بصورة فردية مما يجعل كلا منهما يتخذ الأخلاق نفسها والسلوك نفسه، وهذا ما جعل فيبر يؤكد أن روح الرأسمالية قد ظهرت من خلال العقيدة البروتستانتية أي قبل ظهور الرأسمالية نفسها.

ويفضل ماكس فيبر استخدام مصطلح روح الرأسمالية حيث يرى أن الروح الرأسمالية قد وجدت في البلد الذي شهد ولادة بنجامين فرانكلين ذي النزعة الرأسمالية المتعالية وذلك قبل أن يتطور النظام الرأسمالي حيث بدأت منذ عام 1632 ترفع الشكاوى ضد الافراط في الحساب بحثا عن الربح [4] .

---

[1] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 152 .

[2] فيليب جونز : النّظريات الاجتماعية والممارسات البحثية ، ص 136.

[3] نقلا عن: آسيا عمروش، طبيعة العلاقة بين الاخلاق والسياسة عند ماكس فيبر، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الجزائر2، "2005/2004" ص68 .

[4]-Max Weber : le savant et le politique.p98

وتعتبر روح الرأسمالية في نظر فيبر مجموعة المعتقدات والقيم التي اعتنقها رجال التجارة والصناعة الأوائل، فهؤلاء الناس لديهم دافع قوي لتراكم الثروة الشخصية ومع ذلك فهم على العكس تماما من الأثرياء في مناطق أخرى وتتمثل الاتجاهات المتضمنة في روح الرأسمالية أنّها مستمدة من الدين حيث لعبت البروتستانتية عموما دورا في تعزيز هذه الرؤية وبصفة خاصة النزعة التطوّرية وكان معظم الرأسماليين الأوائل من مناصري هذه النزعة، ويذهب فيبر إلى القول بأن بعض المذاهب الكالفينية كانت المصدر المباشر لروح الرأسمالية [1] .

ثانيا / التمييز بين الرأسمالية وروح الرأسمالية:

يميز لنا ماكس فيبر بين روح الرأسمالية وروح ما قبل الرأسمالية وذلك من خلال عرضه للمثال الذي يقارن فيه بين الموظف الكبير في الصين والأرستقراطي في روما القديمة والمزارع الحديث، حيث يؤكد على أن الذهب لدى شخص من نابولي، أو لدى ممثلي المهن المماثلة في آسيا، أو لدى حرفي من أوربا الجنوبية أو آسيا يبدو أكثر قوّة بكثير ممّا هو على سبيل المثال لدى انجليزي يعيش في نفس الظروف [2] .

ويعني ماكس فيبر هنا أن الأخلاقيات التي كانت تسود ما قبل روح الرأسمالية في المناطق التي لا تعتنق البروتستانتية تفتقر للأخلاقيات المهنية بحيث تميل إلى الشره والافراط في الثروة على عكس الانجليزي الذي يعتنق البروتستانتية الذي يكون فيه الافراط أقل حدة رغم عيشهم في نفس الظروف .

وبهذا يميز ماكس فيبر بين مختلف أشكال الرأسمالية حيث يرى بأنها توجد كلها ضمن مجتمعات تتميز " **بالمذهب التقليدي الاقتصادي**" حيث أن المواقف من العمل التي يتميز بها المذهب التقليدي موضحة بصورة مسهبة بواسطة خبرة أرباب العمل الرأسماليين المحدثين الذين حاولوا إدخال طرائق انتاجية معاصرة في المجتمعات التي لم تكن تعرفها من قبل فالعامل التقليدي لا يفكر على أساس زيادة أجرته اليومية بل يفكر فقط بكمية العمل التي يجب عليه انجازها لكي يكسب ما يلبي حاجاته الاعتيادية بل مجرد العيش كما يعيش وكما اعتاد أن يعيش وبهذا المعنى ليس المذهب التقليدي غير قابل اطلاقا للتوافق مع الجشع إلى الثروة وحيث يعثر على البخل الأناني في كل المجتمعات، وهو في الواقع من خصائص المجتمع ما قبل الرأسمالي أكثر من المجتمع الرأسمالي [3] .

[1] محمّد الجوهري : قراءات معاصرة في علم الاجتماع ، ص 418.
[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 31 .
[3] أنتوني جيدنز : الرأسمالية والنّظرية الاجتماعية ، ص 298.

ويرى فيبر أنّه بهذه الصورة تواجدت رأسمالية المغامرين التي انطوت على السعي نحو الكسب عن طريق العنف وعن طريق اقتطاع حصة من المغانم قبل كل شيء، وذلك عن طريق الحروب إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تحت شكل ثابت من الأسلاب النقدية، أي عن طريق استغلال الأشخاص أو عن طريق القرصنة في جميع فترات التاريخ، لكن هذا يختلف جدا عن الرأسمالية الحديثة، التي تأسست لا على السعي اللاأخلاقي إلى الربح الشخصي لكن على الالتزام المنضبط بالعمل كواجب [1].

كما يؤكد فيبر على أن الاختلاف الموجود بين روح الرأسمالية الحديثة وما قبل الرأسمالية ليس اختلافا على درجة التعطش للكسب المالي، ذلك أن النهم إلى المال قديم قدم الانسان يقول في ذلك : " **إننا نرى أن اللذين يخضعون لهذا النهم من غير تحفظ – على غرار القبطان الهولندي ((الذي يفضل الذهاب إلى الجحيم لكي يكسب المال، حتى ولو تعرض ابحاره للخطر)) لا يمكن لهم تحت أي عنوان، أن يكونوا شهودا على روح حديثة للرأسمالية خاصة جدا ، روح يمكن أن تعتبر ظاهرة جماعية ، وهذا وحده هو الذي يعنينا ففي كل عهود التاريخ راحت حمى الكسب من غير هوادة تطلق العنان لنفسها خارج كل معيار أخلاقي، كلما رأت نفسها قادرة على ذلك ظهرت التجارة الحرة ، على غرار ما يحصل في الحرب أو القرصنة فاقدة أي كابح أخلاقي في العلاقات مع العناصر الغربية أو مع الذين لا ينتمون إلى نفس المجموعة الاجتماعية هذه (الأخلاق باتجاه الخارج)** " [2] . و معنى هذا أن الرأسمالية القديمة قائمة على الجشع والشره وأن أخلاقها تتجه نحو الخارج وتسعى فقط إلى تحقيق منافع شخصية بينما روح الرأسمالية تعتبر ظاهرة جماهيرية مرتبطة بالوعي.

ويحاول فيبر تلمس الأساس النظري أو ما يسميه روح الرأسمالية، فالرأسمالية لديه ليست هذه القائمة على الأنانية والشره والرغبة في الكسب بلا أدنى تورع أي رأسمالية الرغبة العارمة في الذهب فهذه رأسمالية فجّة انّما الرأسمالية لديه هي ظاهرة جماهيرية مرتبطة بالوعي و الرأسمالية الفجّة هي مرحلة سابقة على الرأسمالية النظرية فبينما تقوم الأولى على أخلاق تتجه نحو الخارج تقوم الثانية على أخلاق تتجه نحو الداخل ، الرأسمالية الواعية هي الاستعمال العقلي لرأس المال في مؤسسة دائمة والتنظيم العقلي الرأسمالي للعمل الحر.

[1]-Max Weber : le savant et le politique.p54

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 31 .

ثالثا / المبادئ والقواعد الأخلاقية لروح الرأسمالية:

بعد أن حدّد ماكس فيبر مفهوم روح الرأسمالية وكيف أنّ البروتستانتية ساهمت في اعطاء روح جديدة للرأسمالية ، وبعد أن حدّد الفرق بين الرأسمالية القديمة والرأسمالية الحديثة أراد اعطاء مبادئ أخلاقية خاصة تتّصف بها روح الرأسمالية وهي المبادئ التي وضعها بنيامين فرانكلين وهي كالتّالي :

1/ **الوقت هو المال** : يقول فرانكلين في ذلك : " **تذكر أن الوقت هو المال** "[1] ويشرح فيبر هذا المبدأ أن الذي يستطيع تحصيل عشر قطع نقدية في اليوم من عمله، ويختار أن يتنزه أو أن يبقى في غرفته مبدّدا نصف الوقت مع أن ملذاته وكسله لا تكلفه أكثر من ستة قطع نقدية عليه أن يعرف أن كسله ليس الخسارة الوحيدة، ذلك أنه يكون قد أنفق فوق ذلك بل بالأحرى رمى خمسة قطع أخرى .

2/ **الثقة هي المال** : " **تذكّر أنّ الائتمان هو المال** " [2] يشرح ذلك أنه إذا ترك أحدهم ماله بين يديه بعد انتهاء أجله فإنه يكون قد قدم لي فائدة المبلغ أو كل ما يمكن أن أستفيده من ماله خلال هذا الوقت، وهو ما يمكن أن تستفيده من ماله خلال هذا الوقت وهو ما يمكن أن يصل إلى مبلغ كبير اذا تصرفت بكثير من الاعتمادات واستخدمتها بشكل مفيد .

3/ **المال بطبيعته يولد المال** : " **تذكر أن المال هو بطبيعته مولد وكثير الانتاج** "[3] المال يولد المال وأولاده يمكن أن تلد أكثر، وهكذا دواليك فمثلا اذا اشتغلت بخمس قطع نقدية تصبح ستة ثم تتحول إلى سبعة وهكذا ، إلى أن تصبح مئة قطعة نقدية ، وكلما زاد عدد القطع النقدية كلما زاد الانتاج أكثر فأكثر والذي يقتل خنزيره فهو يقتل ذريتها حتى الجيل الألف، والذي يغتال قطعة نقود يقضي على كل ما يمكنها أن تنتجه : أكوام من الليرات الاسترلينية .

4/ **الدافع الجيد هو كيفية الحصول على مال الآخرين** : تذكر الحكمة الشعبية : " **يدفع بشكل جيد من يدفع من جيب غيره** " [4] فالذي يعرف بأنه يسدّد نقدا وبدقة وفي الموعد المحدد، بإمكانه في أي وقت وفي ظل أية ظروف أن يستخدم المال الذي ادّخره أصدقائه، وهو ذو فائدة كبيرة أحيانا، بعد المثابرة على العمل والبساطة

[1] ماكس فيبر : الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 26 .
[2] نفسه ، ص 27 .
[3] العياشي عنصر: نحو علم اجتماع نقدي، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون .الجزائر، 2003 .ص56
[4] نفسه ، ص36 .

وشظف العيش لا شيء يساهم في تقدم إنسان يافع داخل المجتمع إلّا الّدقة والاستقامة في أعماله، وبالتالي ينبغي عدم إبقاء المال المستدان ساعة واحدة بعد الموعد المحدد، وإلا تقفل خزانة صديقك في وجهك إلى الأبد .

5/ **أهمية الأفعال اليومية لكسب ثقة الناس** : مفاد هذا المبدأ أنه ينبغي الاحتراس من أن تؤثر أكثر الأفعال تفاهة على الاعتماد المالي (القروض) على أي شخص[1]. فمثلا صوت مطرقتك في الخامسة صباحا أو في الثامنة مساء، يجعل الدائن إذا سمع هذا الصوت يمهلك ستة أشهر أخرى أما إذا رآك تلعب البليار، أو اذا سمع صوتك في مقهى خلال الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه في العمل، فذلك يدفعه إلى مطالبتك بما له في اليوم التالي فهو يطلبه فجأة، حتى من غير أن تكون مهيأ لتسديده إليه .

6/ **الظهور بمظهر الرجل الشريف الورع** : ما أكّده سابقا يثبت فوق ذلك أنك تتذكر ديونك إنك " **حينئذ تظهر كإنسان مدقق وشريف** " [2]. وهذا ما يزيد رصيدك، حيث يجب الاحتراس من الاعتقاد بأن كل ما تملكه يعود اليك، ومن العيش على أساس هذه الفكرة إنّه الخطأ الذي يقع فيه كثيرون ممن يملكون أرصدة مالية، ولكي تتفادى ذلك إعمل حسابا دقيقا لمداخيلك ولنفقاتك .

واعتمادا على ما سبق يؤكد فيبر أن الرأسمالية وعلى الرغم من تواجدها في الصين والهند وبابل وفي الزمن الغابر والقرون الوسطى فإن الاخلاق التي ذكرناها بالتحديد هي التي كانت تنقصها كما يؤكد أن الارشادات الأخلاقية التي قدمها فرانكلين مصبوغة بصبغة نفعية، والنزاهة مفيدة لأنها تؤمّن لنا الاعتمادات وكذلك الدقة و الانضباط في العمل والبساطة والزهد.

وبهذا يؤكد ماكس فيبر أن عناصر الموقف الأساسية لما يسميه روح الرأسمالية – الوقت هو المال ، الائتمان هو المال – لها علاقة سببية مع الديانة البروتستانتية حيث يقول في ذلك : " **نرى أن عناصر الموقف الأساسية الذي سميناه روح الرأسمالية هي بالتحديد العناصر التي اعتبرناها جوهر النسكية الطهرية المهنية** " [3] .

وهكذا فإن فيبر يهدف إلى بيان أن الرأسمالية الحديثة ما هي إلاّ مماثلة أو صورة للقيم البروتستانتية – الكالفينية أو الطهرية – التي ينظر فيها إلى العمل ليس أنّه وسيلة اقتصادية ولكن كفاية روحية وقد حاول فيبر أن

[1]–Max Weber : le savant et le politique.p87

[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 27 .

[3] نفسه ، ص 147 .

يبين كيف أن نسقا اقتصاديا مرتبطا بقيم دينية وأن يتبع هذه القيم التي ساعدت على نمو الرأسمالية الحديثة، وكيف أدت هذه القيم إلى نسق للدافعية السيكولوجية التي ساعدت على هذا النمو وما يسميه فيبر الزهد الدنيوي لس سوى مجموعة من القيم الجديدة التي عملت على خلق دافعية اقتصادية بين البروتستانت ومن ثم فقد أدت إلى ظهور نوعا اقتصاديا جديدا هو ما يسميه فيبر بروح الرأسمالية [1] .

وعلى هذا ينتهي فيبر إلى القول : " **الأمر بالنسبة لنا ليس كثرة المفاهيم التي طوّرها اللاّهوتيون في نظرياتهم الأخلاقية بقدر ما هي الأخلاق التي تنعش حياة المؤمنين العملية أي الطريقة التي يتم بها عمليا توجيه الاخلاق المهنية توجيها دينيا** " [2] .

وبهذا يمكن القول أن ماكس فيبر يعتبر أن الرأسمالية وليدة البروتستانتية و القيم الأخلاقية التي تتسم بها هذه الديانة هي القيم التي توجّه سلوكات الفرد وتكسبه طابعا أخلاقيا في مجال الحياة المهنية ، وعلى هذا كان ماكس فيبر يطمح إلى عقلنة الحياة الاقتصادية برمتها عقلنة نسكية .

غير أنّ أفكار ماكس فيبر واجهت عدّة انتقادات من الآخرين، وذلك أنّه على الرغم من أنّ الأخلاق البيوريتانية تركت بالتأكيد بصمتها على مواقف الناس من العمل والحياة، وهي المواقف السائدة نفسها في المجتمعات الرأسمالية في شمال أوربا وأمريكا الشمالية، ولكن عند تناولها كتفسير لظهور الرأسمالية نجد أنّ أثرها كان ضعيفا، وهناك أمثلة كثيرة يمكن ذكرها لأصحاب مشاريع اقتصادية عظمى من الكالفينين وبالرغم من وجود نمو اقتصادي في البلاد التي تجذرت فيها الكالفينية ، فإنّه لا توجد أدّلة كافية على أنّ العقيدة الدينية الكالفينية كان لها دور جذري أو حتمي في ظهور الرأسمالية، ويدافع هنري كامن henry kamen باقتناع بأن الدافع لم يكن المعتقدات الدينية لأصحاب المشاريع الاقتصادية البروتستانت بل حالتهم اللجوئية، هي التي أدت إلى وجود علاقة شكلية بين الكالفينية والرأسمالية [3] .

بالإضافة إلى هذا هناك ايضا من وجّه انتقادات إلى ماكس فيبر فبالرّغم من أن توني في كتابه (Religion and the rise of capitalism) قد قبل وجهة نظر فيبر القائلة بوجود علاقة عليه بين الاصلاح البروتستانتي وظهور الرأسمالية الاّ أنه يؤكد أنّ الكالفينية لم تكن المصدر الدقيق للرأسمالية ولا يمكن

[1] محمّد أحمد بيومي : أسس وموضوعات علم الاجتماع ، ص 176.
[2] ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص 156 .
[3] جيمس فولتشر : مقدّمة قصيرة في الرّأسمالية ، ص 59.

للكالفينية بمفردها أن تشرح سمة العلاقات الكلّية بين البروتستانتية والرأسمالية ويمكن أن نلخص نقده في هذين الاعتراضين :

1- ليس من التصنع أو التكلف اقتراح أن المشروعات الرأسمالية كان يجب أن تنتظر ويبدو أن فيبر قد يشير إلى ذلك حتى يحدث التغييّر الديني في الرأسمالية .

2- أليس أيضا من المعقول أن نذهب الى أنّ التّغيّرات ذاتها كانت مجرّد نتائج للحركة الاقتصادية [1] .

كما يعتقد أيضا روبرتسون أن السبب الأساسي لظهور الرأسمالية هو الرأسمالية نفسها ، فالرأسمالية قد برزت من الظروف المادية للحضارة ، وليست من بعض المبادئ الدينية فالبروتستانتية لا تؤثّر في الرأسمالية ولكن الرأسمالية هي التي أثّرت في الأخلاق الاجتماعية للبروتستانتية [2] .

- وبالإضافة الى ذلك فإن الرؤية التي أطلق عليها فيبر روح الرأسمالية يمكن تمييزها بوضوح في المدن التجارية الإيطالية القديمة بسنوات طويلة قبل أن يسمع أحد عن الكالفينية ويذهب البعض أيضا إلى أنّ الفكرة الرئيسية عن العمل في مهنة و التي ربطها فيبر بالبروتستانتية موجودة بالفعل في المعتقدات المسيحية .
- وبالرغم مما يسود دراسة فيبر من علمية و اعتماده على البيانات الإحصائية إلاّ أنّ الطابع اللاهوتي قد غلب عليها و خرجت دراسته عن الأخلاق البروتستانتية أكثر منها دراسة عن روح الرأسمالية كما غلبت على الأخلاق البروتستانتية التشعبات و التفريعات حتى يفقد القارئ الخط الأساسي في الدراسة و الهدف الذي ترمي إليه و هو إثبات الصلة بين الاخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية.
- من ناحية أخرى يتحدث ماكس فيبر عن روح الرأسمالية و يفيض في بيان أسسها دون أن يحاول أن يربط الفعل بين الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية.
- يدرس فيبر الصلة بين الرأسمالية و البروتستانتية و يجعلها صلة ايجابية، فالأخلاق البروتستانتية هي التي أقامت دعائم الرأسمالية، و بالتالي يجب الإبقاء على هذه الأخلاق للمحافظة على هذا النظام و إعطائه دفعة روحية جديدة ايدولوجية دينية و هذا يعني فقره الفكري و ضعف أسسه النظرية.
- لقد نشأت الرأسمالية التقنية و الرأسمالية التجارية قبل ظهور البروتستانتية في القرن 15، وكانت مدن

[1] محمّد أحمد بيومي : تاريخ التفكير الاجتماعي ، ص 296 .

[2] نفسه، ص 297 .

- إيطاليا و جمهورياتها ممثلة لهذه الصورة المبكرة للرأسمالية الصناعية في القرن 19 كانت أكثر إزدهارا في الجنوب على سواحل البحر الأبيض المتوسط منه في الشمال باستثناء هولندا و انجلترا, وكانت الحركة التجارية أساسا في الجنوب بعد عصر الاستكشافات الجغرافية و الاستعمار الهولندي و الاسباني و البرتغالي قبل نشأة البروتستانتية.
- إن محاولة تفسير ظاهرة اقتصادية بعلّة خلقية أو دينية هو في الحقيقة تجنّي على الواقع و على العلم على السواء , فالظواهر الموضوعية لها عللها الموضوعية ، وأيّة محاولة لتفسير الظواهر الاقتصادية بإرجاعها إلى امزجة الشعوب و طبائعها على اختلاف الطوائف والأجناس تكشف عن نظرية عنصرية يتّحد فيها الدين بالعنصرية.
- لقد ظهرت الرأسمالية في المناطق الاكثر تصنيعا كما لاحظ عالم الاجتماع بوكله و كما لاحظ الشاعر كينس، في ظروف اقتصادية معينة، و لكن فيبر يحيل إلى نظرية عنصرية و يجعل ظهورها في هذه المناطق نتيجة لتميّزها بمستوى حضاري رفيع، فالشمال أكثر تقدما من الجنوب و لكن الحقيقة أن التصنيع نفسه هو الدافع لتغيير العقلية، قد يكون الدين أحد العوامل الموجهة، و لكن الدّين في هذه الحالة يكون أقرب إلى الإيديولوجيا أي تصور العالم، لكن فيبر يجعله العامل الوحيد و يغفل ما سواه مثل الهجرة وتغيير المكان، التجارة البحرية و خيرات المستعمرات و نشأة المدن الساحلية ثم اكتشاف الآلة أخيرا، فلا يمكن تفسير الرأسمالية اذن بعامل واحد هو عامل الدين، لأنها ظاهرة تاريخية وليدة الأوضاع و تخضع لظروف موضوعية لم يأخذها فيبر في الاعتبار .
- من جهة أخرى حديث ماكس فيبر عن الاسلام واليهودية وحكمه عليهما هو حكم ذاتي متعصب ودليل ذلك أن هناك دول إسلامية تعاقبت على التاريخ عرفت برواج انظمتها الاقتصادية ، وهناك دول اليوم تفعل النظام الاقتصادي الإسلامي و تجعل منه نظاما فعالا ومنافسا كما هو حاصل في دولة ماليزيا ، كما أن اليهود اليوم يحكمون قبضتهم على التجارة العالمية وهذا ما يتنافى مع ما قاله ماكس فيبر عن الإسلام وعن اليهودية.

ومن هنا يمكن القول أن ماكس فيبر لم يكن مفسرا لأخلاق الرأسمالية، وانما كان مدافعا عن البروتستانتية، ولم يجد غير النظام الرأسمالي ليربطها به. بحكم أنه نظام فرض نفسه فأراد فيبر للرأسمالية أن تكون من انتاج البروتستانتية ، ومن هنا تزداد قناعة الناس بفعالية البروتستانتية وهذا يعني أن نتيجة البحث عن جدلية أخلاق الرأسمالية عند فيبر كانت محددة سلفا.

خـــــــاتمة:

وفي الأخير يمكن القول بأنّ ماكس فيبر كان رائدا من رواد علم الاجتماع حيث ساهم في إرساء معالم هذا العلم كغيره من الفلاسفة الاجتماعيين أمثال دوركايم و كارل ماركس. وبهذا كان لماكس فيبر دورا مهمّا في تأسيس نظرية في علم الاجتماع كغيره من المفكرين حيث اعتبر أنّ علم الاجتماع هو العلم الذي يحاول أن يجد فهما تفسيريا للفعل الاجتماعي ، وأنّ هذا الأخير هو بمثابة سلوك إنساني يضفي عليه الفاعل معنى ذاتيا .وبهذا اعتبر أنّ وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هي الفرد الفاعل ، ومن هنا يذهب الى التأكيد على أنّ دراسة الفعل الاجتماعي يتطلّب وجود أداة منهجية أطلق عليها تسمية " النّمط المثالي " بحيث كان فيبر أوّل من قال بهذه الفكرة بمعنى النّمط المثالي للرأسمالية الغربية.

كما اهتم فيبر بموضوع البيروقراطية اهتماما واضحا في كلّ دراساته حيث اعتبرها ظاهرة غربية موجودة في الدول الرأسمالية وأنّ النظام الرأسمالي هو من أفرز النظام البيروقراطي. وفي مقابل ذلك رأى بأنّ البيروقراطية هي التعبير التنظيمي عن العقلانية وعدّ هذه الأخيرة أيضا بأنّها ظاهرة غربية حيث أدخلها ليحدّد شكل فاعلية الاقتصاد الرأسمالي وبالتّالي عقلنة المجال أو الجانب الاقتصادي ، حيث شكّلت عنده فكرة العقلنة جوهر التحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في فترة الحداثة. و من هنا دعا الى ضرورة عقلنة المعتقدات الدينية لأنّ الفكر الدّيني بالنسبة اليه كسائر أنواع الفكر الأخرى، وأنّه من أهم المجالات الفكرية التي تساهم في تعديل سلوك الانسان وبالتّالي تغيير وتعديل بنية المجتمع ، وبهذا سعى ماكس فيبر نحو بلوغ هدف معيّن وهو عقلنة الحياة الاقتصادية برمّتها عقلنة نسكية – دينية – وبهذا استطاع فيبر أن يبرز العلاقة الموجودة بين الرأسمالية وبين البروتستانتية.

ولقد بيّن ماكس فيبر العلاقة الموجودة بين كل من الرأسمالية والبروتستانتية في كتابه (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث كان من بين الكتب التي تحتل مقام الصدارة في علم الأخلاق – علم اجتماع القيم – فقد اهتم فيبر في هذا الكتاب بوصف نسق جديد من القيم وهي الأخلاق البروتستانتية حيث كان دور هذا الكتاب فعالا في القرنين السادس والسابع عشر وكيف أنّ هذه القيم قد شكّلت نسقا اجتماعيا جديدا – روح الرأسمالية – ولكي يبيّن ماكس فيبر العلاقة الموجودة بين الرأسمالية والبروتستانتية عمد على اجراء مقاربة اعتمد فيها على المقارنة بين مجموعة من الطوائف الدينية كالإسلام واليهودية والكاثوليكية والبروتستانتية وتوصّل الى أنّ الاسلام دين زهد لا يحث على العمل وبالتّالي فانّ النظام الرأسمالي لم يظهر في المجتمع الاسلامي وكذلك اعتبر اليهودية أنّ العمل فيها غير مؤسّس وأنّ الرأسمالية التي شهدتها رأسمالية تتّجه نحو المضاربة وأنّ تقاليدها هي تقاليد

الرأسمالية المنبوذة وأنّ الكاثوليكية منفصلة عن العالم وتتجاهل العمل والمنافسة وتمتاز باللّامبالاة وبهذا وصل إلى نتيجة مفادها أنّ البروتستانتية هي الدّيانة التي تهتم بمباهج الحياة وأنّها تدعو الى العمل والمثابرة وفق أخلاقيات محدّدة. ومن هنا جعل ماكس فيبر العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية علاقة سببية لأنّهما يتخذان نفس السلوك حيث أنّ الرأسمالي يدّخر الجزء الأكبر من الأرباح قصد استثماره واعادة تشغيله من جديد من أجل تحقيق ربح أكبر وأفضل والبروتستانتي يدخّر المال قصد التنسّك من أجل سعيه الى الخلاص وذلك بصورة فردية ممّا يجعل كلّ منهما يتّخذ الأخلاق نفسها والسلوك نفسه وهذا ما جعل فيبر يؤكّد أنّ روح الرأسمالية قد ظهرت من خلال العقيدة البروتستانتية وبالتّالي فانّ الرأسمالية في نظر فيبر هي وليدة البروتستانتية.

ومن هنا توصّل فيبر من خلال ربطه بين البروتستانتية وروح الرأسمالية الى مجموعة من النتائج بحيث:

- حاول البحث في العلاقة بين أخلاق البروتستانتيين وبين نمو روح الرأسمالية مؤكّدا بذلك كيفية تحوّل الأفكار وهو يقصد الأفكار الدينية الى قوى تاريخية فعّالة.

كما وضح فيبر الشكل والوجهة اللّذين تمكّنت الحركة الدينية عبرهما على تطوّر الحضارة المادية على أساس أشكال القرابة الانتقالية ، فقد وجد خلال دراسته عن الأخلاق البروتستانتية أنّ الرأسمالية الحديثة نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية بما تتضمّنه من سلوك وأخلاقيات عملية. ومن هنا اعتبر أنّ الدّين هو المحرّك الأساسي للأنشطة الاقتصادية والانتاجية ، فسلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في اطار تصوّرهم العام للوجود ، حيث تعتبر المعتقدات الدينية وتفسيراتها احدى هذه التصوّرات ، وهذه التصوّرات الدينية تعدّ احدى محدّدات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي احدى أسباب تحديد السلوك وبالتّالي تشكيل الفعل الاجتماعي.

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجّهت الى ماكس فيبر حول ربطه بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، فلا يمكن لأحد أن ينكر في أنّه رجل من معارف التاريخ بحيث حقّق فتحا عظيما بتسليطه الضوء على أحد العناصر والعلل والأسرار والمتمثّلة في الدّين البروتستانتي التي كانت وراء نهضة الغرب وذلك من وجهة نظر التّأييد التي أكدناها في مقدّمة بحثنا ، وفي اكتشافه الرابطة القويّة بين الأخلاق والعمل ، وبين النّظري والتّطبيقي ، وبين الروّحي والمادي وذلك من خلال ملاحظته التي وجدها في الربط بين البروتستانتية وروح الرأسمالية من خلال تأكيده أنّه حيثما وجدت البروتستانتية والتي تقدّس العمل وتشجّع روح المبادرة انبعثت الرأسمالية ونشطت.

وبهذا يمكن القول بأنّ ماكس فيبر وهو يشيّد أطروحته كان مدفوعا بمناهضة الفلسفة الماركسية ، التي ترى أنّ الأخلاق والمثل ماهي سوى افراز للبنية التحتية ، أي البنية الاقتصادية ولأجل أن يدحض وينكس ذلك المفهوم رأسا على عقب ، ادّعى أنّ التركيب الاقتصادي الذي مثّل عنده البنية الفوقية ما هو الاّ افراز للأخلاق والمثل التي

أصبحت عنده بمنزلة البنية التحتية ، وربّما يمكننا القول بأنّ ماكس فيبر فعل بكارل ماركس ما فعله هذا الأخير بهيغل ، حيث قلب فيبر نظرية كارل ماركس في قضيّة التغيّر الاجتماعي والذي اعتبر بأنّ الاقتصاد – المادة – هو المحرّك الأساسي ، بينما فيبر عكس ذلك من خلال تأكيده أنّ الدين هو المحرّك الأساسي للأنشطة الاقتصادية وهذا ينطبق على مختلف المجالات الأخرى .

ومن هنا يمكننا القول بأنّ ماكس فيبر قد أفلح في مناهضة الماركسية مضيّقا بذلك النّطاق واحتكر الحق في امكانية جعل الدّين بأنّه المحرّك الأساسي للأنشطة الاقتصادية وكذلك مختلف الأنشطة الأخرى في النّحلة البروتستانتية دون سائر الملل والنحل. ومنه فانّ ماكس فيبر استطاع أن يحيي ويبعث من جديد حيوية الدين البروتستانتي بعد أن فقد سلطته في عصر النهضة حيث ساد الاعتقاد بأنّ الدّين جمّد الفكر البشري واستطاع أن يجعله مثابة المرجعية أو الموجّه الحقيقي لجميع الأنشطة الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأخلاقية وبالتّالي فانّ ماكس فيبر كان مجدّدا للبروتستانتية أكثر من أنّه كان يبحث عن الحقيقة ولعلّ ما يؤكّد قولنا هذا من أنّه لم نشهد أيّ ثورة ضد ماكس فيبر في هذا المجال ولكن على العكس من ذلك فقد ظهرت في الفترة المعاصرة دعوة الى ضرورة الرجوع الى الدّين والاعتماد عليه كمرجعية في تحديد سلوكات الفرد الأخلاقية.

وعلى هذا النحو فإن ماكس فيبر لم يكن مجدد للرأسمالية وباعثا للأخلاق فيها، وإنما كان باعثا للبروتستانتية من خلال ربطها بالرأسمالية بحكم أن الرأسمالية اثبتت فعاليتها و جدارتها وتحولت الى دين جديد في ظل تراجع مكانة المسيحية خاصة أمام الاسلام. فأراد ماكس فيبر أن يلفت انتباه الناس إلى أن الرأسمالية ولدت من رحم البروتستانتية لكن الرأسمالية تبرأت من هذه الامومة و تخلت عن أخلاقها.

قائمة المصادر و المراجع

أوّلا / المصادر:

– باللغة العربية :

1/ الانجيل: دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، بيروت، ط1 ، 1995

1/ماكس فيبر : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ترجمة علي مقلّد، مركز النماء القومي، لبنان. دت.

2/ ـــــــــــ :مفاهيم أساسية في علم الاجتماع ، ترجمة صلاح هلال، تقديم محمّد الجوهري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2011

3/ـــــــــــ: العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ترجمة جورج كتورة، مركز دراسات الوحدة العربية للنشر بيروت، ط1، يوليو،2011

– بالفرنسية :

1-Max Weber: le savant et le politique .Traduction de Julien Freund introduction de Raymond Aron , Librairie Plon , Paris, 1959 .

2-_____: économie et société, L'brairie Plon introduction de Raymond Aron .Paris.1959

ثانيا/ المراجع:

1/أنتوني جيدنز: مقدّمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة أحمد زايد وآخرون، دار الكتب العربية

2/أليكسي جورافسكي: الاسلام والمسيحية، دار المعرفة، 1996.

3/ أنتوني جيدنز: الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة ،ترجمة أديب يوسف شيتش، لهيئة العامة السورية للكتاب.دت

4/ أليكس انكلز: مقدّمة في علم الاجتماع، ترجمة محمّد الجوهري، دار المعارف،ط6،1983

5/ابراهيم مصطفى: الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم، دار الوفاء، الاسكندرية. د ت

6/ بور ريكور: محاضرات في الايديولوجيا و اليوتوبيا ، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة ليبيا،ط1،2002

7/تيودور فون أدورنو: محاضرات في علم الاجتماع، رجمة جورج كتورة، مركز الانماء القومي ، لبنان

8/ توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، دار أوريا، ليبيا، ط2،2004

9/ جان فرانسوا دورتيه: علم الاجتماع من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية، ترجمة لياس حسن، دار الفرقد،دمشق،ط1، 2010

10/جيمس فولتشر: مقدّمة قصيرة عن الرأسمالية، ترجمة رفعت السيّد علي،دار الشروق،مصر،ط1، 2011

11/جاكلين روس: مغامرة الفكر الأروبي، ترجمة أمل ديبو، أبو ظبي،ط1،نوفمبر، 2011

12/ جون سكوت: خمسون عالما اجتماعيا(المنظرون المؤسسون) ،ترجمة رشا جمال ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. دت

13/ حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت،ط4، 1990

14/ دانييل هارفييه: سوسيولوجيا الدين،ترجمة درويش الحلوجي، المشروع القومي للترجمة،ط1، 2005

15/رونالد يسترومبرج: تاريخ الفكر الاروبي الحديث،ترجمة أحمد الشيباني، دار القارىء العربي،القاهرة،ط3 .1994

16/روديجر بوبنر:الفلسفة الألمانية الحديثة،ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة. دت

17/ ريمون بودون:أبحاث في النّظرية العامة في العقلانية، ترجمة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة،بيروت،ط1،يونيو، 2010

18/ ريتشارد تاريناس:آلام العقل الغربي،ترجمة فاضل جتكر،دار كلمة للنشر،أبو ظبي،ط1، 2010

19/ رضوان السيّد: سياسات الاسلام المعاصر، جداول للنشر،لبنان، ط2، 2015

20/زروخي الدراجي: اشكاليات اساسية في مناهج العلوم الانسانية والاجتماعية، دار صبحي للطباعة والنشر،ط1، 2013

21/سابينو أكوافيفا: علم الاجتماع الديني، ترجمة عز الدين عناية، دار كلمة للنشر، أبو ظبي،ط1، 2011

22/ عبد الباسط عبد المعطي: اتّجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكويت ،أغسطس، 1981

23/ علي ليلة: ماكس فيبر والبحث المضاد في أصل الرأسمالية المعاصرة، المكتبة المصرية للطباعة والنشرالاسكندرية،2004

24/ عبد الله محمّد عبد الرحمان: النظرية في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،2006

25/ عادل العوّا: العمدة في فلسفة القيم، طلاس للترجمة والنشر ، دمشق،ط1، 1986

26/ عادل ضاهر: الأخلاق و العقل، دار الشروق،الاردن،ط1، 1995

27/عبد الله الخريجي: علم الاجتماع الدّيني، رامتان للتوزيع والنشر،جدّة،ط2، 1190

28/ غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة عادل زعيتر ،كلمات عربية للنشر، القاهرة. دت

29/ فيليب جونز: النظريات الاجتماعية والممارسات البحثية ،ترجمة محمّد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع،ط1، 2010

30/ فيليب راينو: ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث، ترجمة محمّد جديدي، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1 2009

31/كمال بومنير: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط1 2010

32/ لوران فلوري: ماكس فيبر،ترجمة محمّد علي مقلّد، دار الكتاب الجديد المتّحدة،ط1، 2008

33/ محمّد الجوهري: قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، ترجمة مصطفى خلف، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة،2002

34/محمّد أحمد بيومي: تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية،2009

35/محمّد أحمد بيومي: أسس وموضوعات علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية،2007

36/ محمّد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية،2000

37/ مولود زايد الطبيب: علم الاجتماع السياسي، منشورات جامعة السابع من أبريل،ليبيا،ط1،2007

38/محمّد عزّت الطهطاوي، لماذا اختار هؤلاء الاسلام دينا، مكتبة النافذة،مصر،ط1، 2005

39/ مجموعة أساتذة: كتابات اجتماعية معاصرة، تحرير محمّد سعيد فرح، دار الكتب العربية. دت

40/ محمود عودة: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت

41/ محمّد أبو زهرة: محاضرات في النّصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة. دت

42/محمّد أحمد الخطيب: مقارنة الأديان، دار المسيرة، عمان ، 2008

43/مجموعة من الباحثين: مبادئ الفلسفة العامة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع الجزائر ، 2015

44/ نبيل السمالوطي: الدّين والبناء الاجتماعي،ج2،دار الشروق للنشر،السعودية،ط1، 1981

45/ هربرت ماركيوز: فلسفات النفي، ت/مجاهد عبد المنعم، دار الكلمة للنشر،القاهرة،ط1، 2011

46/يورغين هابرماس: العلم والتقنية ك" ايديولوجيا" ،ترجمةحسن صقر، منشورات الجمل،ألمانيا،ط1، 2003

47/ يوسف شلحت: نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية-اليهودية-النّصرانية-الاسلام)،تحقيق أحمد خليل،دار الفارابي، لبنان، ط1، 2003

ثالثا / الموسوعات المعاجم:

1/أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، تترجمة خليل أحمد خليل، جزآن، ط2، منشورات عويدات، بيروت، باريس 2001

2/ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1979.

3/ مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء، القاهرة، 2007

4/ مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، ط4، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر و التوزيع ، الرياض، 1972

5/عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة ، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1984

رابعا/ الرسائل الجامعية:

1/ آسيا عمروش: طبيعة العلاقة بين الأخلاق والسياسة عند ماكس فيبر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2 2005/2004

خامسا / المجلاّت:

1/حنان علي عواضة: السلطة عند ماكس فيبر ، مجلّة الأستاذ، العدد 206، بغداد، 2013